
الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم
دليلك إلى
السعادة
والنجاح في الحياة
تأليف
د. أنس أحمد كرزون
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

دليلك إلى

السعادة والنجاح في الحياة

تأليف
د. أنس أحمد كرزون

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الهيئة العالمية
لتحفيظ القرآن الكريم

بطاقة فهرسة : فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية .

كرزون، أنس أحمد . دليلك إلى السعادة والنجاح في الحياة / تأليف أنس أحمد كرزون. - ط١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٠ .
١١٢ ص ؛ ٢٤ سم . تدمك ٩ ٨٩٦ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - السعادة . ٢ - النجاح .
أ - العنوان . ١٧١,٤

نشر مشترك

الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الأزاريطة قسم باب شرق بجانب جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريدياً : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

المملكة العربية السعودية جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي
هاتف : ٩٦٦٢٦٩٠٠٠٣٠ + - فاكس : ٩٦٦٢٦٩٠٠٠٤٠ +
ص . ب : ١١٨٥٨٤ - الرمز البريدي : ٢١٣١٢
البريد الإلكتروني : info@hqmi.org.sa

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السعادة الحقة

قال الإمام ابن الجوزي رحمه اللَّه:

(لقد غفل طلاب الدنيا عن اللذة فيها، وما اللذة فيها، إلا شرف العلم، وزهرة العفَّة، وأَنفة الحمية، وعز القناعة).

[صيد الخاطر: ص ٢٤٣].

***

مقدمة

الحمد للَّه الذي وفَّق عباده الصالحين لطاعته، والصلاة والسلام على الهادي البشير والسراج المنير الذي أرسله اللَّه ﷻ رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين؛ وبعد:

فإن اللَّه سبحانه وتعالى جعل الجزاء من جنس العمل، فمَن سلك طريق الهداية ظفر بالحياة الطيبة، ومَن سلك سُبل الغواية لم يحصد إلَّا الشقاء والتخبُّط في متاهات الزيغ ودركات الهاوية.

فأهل السعادة في ازدياد تكلؤهم رعاية اللَّه ﷻ، ويتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]. وأهل الشقاوة في انتكاس وزيغ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

فما أحوج المسلمين اليوم إلى العودة الصادقة لهدي هذا الدين القويم.

وما أحوج البشرية جمعاء إلى النجاة من قيود الشهوات والأطماع والفتن.

وما أحوج العالم - بأمواجه المتلاطمة ونزواته الفتاكة - إلى العودة للإيمان: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وبين يديك - أخي القارئ الكريم - وصايا نافعة، وتوجيهات ساطعة، وإرشادات عاطرة، تنير لك طريق السعادة والنجاح في الحياة، وقد آثرت عرضها بهذه الطريقة المتميزة والأسلوب المشوِّق لتكون دليلًا ميسَّرًا بين يدَيْ شباب الأمة.

وقد سبق إصدار عدة طبعات من هذا الكتاب، وترجمته إلى اللغة الفرنسية واللغة الألبانية، واختيار بعض موضوعاته للبرامج

التلفزيونية، وها هي الطبعة الرابعة الخاصة بدار السلام بالقاهرة بعد أن صدرت طبعته الأولى عام (١٤٢٢هـ) في بيروت.

واللَّهَ أسألُ أن

يوفِّقنا جميعًا لمرضاته.

ويسعدنا بمناجاته والتقرُّب إليه،

ويمنَّ علينا بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

والحمد للَّه رب العالمين.

***

أين السعادة ؟

التائهون وراء أوهام السعادة الـمزيَّفة ممن كفروا باللَّه سبحانه، وأعرضوا عن طريق الإيمان لن يصلوا إلَّا لسراب خادع؛ لأنهم أهملوا الخصائص الفطرية الكامنة في أعماق الإنسان، وأنه كائن لا تنفصل فيه مطالب الجسد عن مطالب الروح، والروح أساسُ حياة الإنسان، واللَّه سبحانه خلق الإنسان وبيَّـن له طريق سعادته، وحذَّره من طرق الشقاء، سبحانه هو الخالق الحكيم العليم:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]؛ فربك سبحانه أعلم بما يصلح ويقوِّم حياتك، ويشيع روح الطمأنينة والسرور في نفسك: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠]. ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

● وإذا كـان الصانـع هـو الـذي يقرر ما يصلـح صنعته ويحدد الطـريق الصحيح لعملها وتشغيلها، وهـي آلـة صمـاء، فكيف بهذا الكائن البشري الذي يريد الضالون أن يسيِّروه بعيدًا عن هدي خالقه سبحانه، ثم يتوهَّمون أنه سيبقى في طريقه الصحيح دون خلل أو اضطراب؟!

● ولما ضلّ الإنسان طريق التوحيد بدأ يبحث عن طرق شتى يلبي فيها مطالب روحه في العبودية للخالق، فتخيَّل وهج الشمس، أو ضياء القمر، أو لهب ألسنة النار، أو نحو ذلك من الأصنام والأحجار والآلهة المزيفة التي خضع لها الإنسان زورًا، وهو يظن أنه بذلك يحقق الاستجابة لفطرته والسعادة لنفسه!!

● ورغم تقدم العلوم المادية إلَّا إن المشكلات النفسية والاجتماعية للأفراد والجماعات لا زالت متفاقمة؛ بل إن هذه العلوم التي يُفترض لها أن تسخَّر لرفاهية الإنسان، وتخفيف المتاعب عنه جُعلت سيفًا مسلَّطًا على رقاب الناس، وسلاحًا آثمًا يدمِّر به الأقوياءُ الضعفاءَ، ويسخِّرونهم لنزواتهم وأطماعهم، حتى يسحقوا كرامتهم، ويدنِّسوا إنسانيتهم، ويزهقوا أرواحهم، بمختلف الأسلحة الفتاكة التي تحصد المئات في دقائق معدودة.

فواأسفاه على هذه المدنيّة المزعومة والحضارة المشؤومة.

لقد أحرزت البشرية انتصارات شتى في مختلف العلوم، ولكن ما أثرُ هذا كله في حياتها؟ هل وجدت السعادة؟ هل وجدت الطمأنينة؟ هل وجدت السلام؟

كلا! لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف، والأمراض العصبية والنفسية، والجريمة على أوسع نطاق.

والعلم الذي كان من شأنه - لو سار وفق منهج اللَّه تعالى - أن يجعل من كل انتصار للبشرية خطوةً تقرِّبها من اللَّه، هو ذاته الذي تبعد به البشرية أشواطًا عن طريق سعادتها بسبب انطماس روحها ونكستها.

إننا نرى واقع البشرية النكد، ونرى هنالك على الأفق الصاعد راية النجاة تلوح في هجير الصحراء، والمرتقى الوضيء يلوح للغارقين في المستنقع( ).

أجل، إنه دين الفطرة الذي يمنح الإنسان السعادة الحقيقية، ويحقق له الطمأنينة والرضا، ويجعل رقابة الضمير والوازع النفسي

( ) ينظر: في ظلال القرآن ١/ ٤٤٠ .

ضابطًا يـحدُّ من تعدي الإنسان على أخيه، ويعرِّف كلًّا منهما بحقوقه وواجباته، ويدفع إلى العمل البنّاء ابتغاء مرضاة المولى سبحانه، ويقوِّم السلوك ويزكي النفوس.

***

هي القنـاعـة لا نبـغي لهـا بـدلًا
فيـهـا النعـيم، وفيها راحة البدن
انظـر لـمن مَلَك الدنيـا بأجمـعـها
هل راح منها بغير القطن والكفن؟

ترى المرءَ مشغوفًا بـدنياه متعبًا
وراحتـه لـو صـحَّ فيهـا يقـينـُهُ
صباحًا مسـاءً في طِلابٍ، وما لَهُ
مـن الرزق إلَّا مـا الإلـه ضمـينـُهُ

***

السعادة والشقاء

قال الإمام ابن القيم رحمه اللَّه:

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همُّهُ إلا اللَّه وحده تحمَّل اللَّه سبحانه حوائجه كلها، وحَمَل عنه كلَّ ما أهمَّه، وفرَّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدنيا همُّه حمَّله اللَّه همومَها وغمومَها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخَلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره؛ كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل مَن أعرض عن عبودية اللَّه وطاعته ومحبته بُلِيَ بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾

[الزخرف: ٣٦].

[الفوائد: ص ٨٤].

خير الزاد

من بدائع أقوال الإمام ابن القيم رحمه اللَّه:

- اشترِ نفسك اليوم؛ فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيها إلى قليل ولا كثير؛ ذلك يوم التغابن.
- العمل بغير إخلاص ولا اقتداءٍ كالمسافر يملأ جرابه رملًا يثقله ولا ينفعه.
- من تلمَّح حلاوة العافية هانَ عليه مرارة الصبر.
- قوة الطمع في بلوغ الأمل توجب الاجتهاد في الطلب، وشدة الحذر من فوت المأمول.
- إذا طلع نجم الهمّة في ظلام ليلِ البطالة، وَرَدفه قمر العزيمة، أشرقت أرض القلب بنور ربها.

[الفوائد: ص ٤٩ – ٥١].

هدي الرسل إلى طريق السعادة

قال الإمام ابن القيم رحمه اللَّه:

(لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلَّا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيِّب والخبيث على التفصيل إلَّا من جهتهم، ولا يُنال رضى اللَّه البتَّة إلَّا على أيديهم؛ فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلَّا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال؛ فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها.

وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفةَ عينٍ؛ فَسَد قلبُك؛ وصار كالحوت إذا فارق الماء ووُضع في المقلاة؟! فحالُ العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال؛ بل أعظم، ولكن لا يُحِسُّ بهذا إلَّا قلب حي، وما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي ﷺ؛ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحبَّ نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يَخرج به عن الجاهلين به، ويدخل في عِداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مُستقِلٍّ ومستكثر ومحروم، والفضل بيد اللَّه يؤتيه من يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم)[1].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٦٩، ٧٠).

روى الدينوري عن عتبة بن الوليد قال: كانت امرأة من التابعين تقول:

(سبحانك ! ما أضيق الطريق على مَنْ لم تكن دليله، وما أوحش الطريق على مَنْ لم تكن أنيسَهُ)[1].

● قال الشاعر محمد ضياء الدين الصابوني:

إن السعـادة غـايـةٌ منشـودة ... وسعادةُ الإنسـان فـي تـقـواهُ

(تقـوى الإلـه) سعـادةٌ وتجـارةٌ ... ورضـى المهيـمن ذاك مـا نهـواه

لا تخـشَ إلَّا اللَّه - جـلَّ جـلاله - ... فهـو العظيـم أحـقُ أن تخشـاه[2]

* * *

(١) المجالسة وجواهر العلم (٨/ ٦٩).

(٢) ديوان: رباعيات من مكة (ص ٩٨).

سعادة القلب في رضا الرب

من اتقى ربه، وجاهد في اللَّه حق جهاده، وزكّى نفسه بطاعة مولاه سبحانه، حظي بخَيْرَي الدنيا والآخرة، ووُفِّي أجره بغير حساب.

وما أبدع قول الإمام ابن القيم رحمه اللَّه:

(إن القلوب لا تُعطى مُناها حتى تصلَ إلى مولاها، ولا تصلُ إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة.. ولا يصح لها ذلك إلَّا بمخالفة هواها؛ فهواها مرضُها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أو كاد، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيمًا ألبتَّة؛ بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة.. ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط؛ بل في دُورهم الثلاثة هي كذلك، أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار؛ فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلَّا نعيم القلب، وهل العذاب إلَّا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر؟)[1].

فمن اجتهد في تزكية نفسه وترقِيَتِها حتى يبلغ مرتبة الإحسان؛ فقد فاز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة؛ وتلك هي السعادة الحقَّة، وشتان بينها وبين السعادة المتوهَّمة التي يسعى إليها أهل الدنيا، ويشقون ليحظوْا بها، فلا ينالون إلَّا مزيدًا من الشقاء والتعاسة.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص ٨٢).

وأمَّا سعادة أهل الإيمان؛ فهي سعادة تنبع من القلب، وتتوطد أركانها نتيجةً لإحساس المؤمن بالتكريم الإلهي، وخيرية الحياة، وخيرية المصير، وبهذا تزداد النفس شعورًا بالسكينة والأمن والأمل والرضا والحب.

وهذه السعادة النفسية تصحب العبد في جميع أسفاره من دار الدنيا إلى البرزخ إلى دار القرار، وبها يترقى في درجات الكمال، وإن كانت في ابتدائها لا تنفكُّ عن ضربٍ من المشقة ومجاهدة النفس، حتى تتذوقَ حلاوتها وتُدركَ قيمتها.

وتأمل قول الإمام ابن القيم رحمه اللَّه تعالى:

(مدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام باللَّه، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلَّا لمن تمسك بهاتين العصمتين؛ فأمَّا الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به يعصم من الـهَلكة؛ فإن السائر إلى اللَّه كالسائر على طريقٍ نحو مقصده؛ فهو محتاج إلى هداية الطريق، والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلَّا بعد حصول هذين الأمرين له.

فالدليل كفيلٌ بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدَّة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل اللَّه يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام باللَّه يوجب له القوة والعدة والسلاح)[١].

والفرق بينهما أنَّ الاعتصام بحبل اللَّه هو التزام أمر اللَّه وطاعته، والتمسك بالكتاب والسنة، أمَّا الاعتصام باللَّه؛ فهو الالتجاء إليه وحده سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

(١) مدارج السالكين(١/ ٤٦٠).

السعادة في اتباع هدي النبي ﷺ:

أرسل اللَّه سبحانه الرسل لهداية الناس، وإسعادهم، وإنقاذهم من ظلمات الضلال والجهل والفساد، وكان خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ الذي ختم اللَّه به الرسالة، وهدى به من الضلالة، وعلَّم به من الجهالة، وفتح برسالته أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غُلفًا؛ فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتآلفت به القلوب بعد شتاتها، فكان عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين كما قال عنه المولى سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لقد شرح اللَّه له صدره، ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمره، والهدى والفلاح والسعادة لمن تمسك بسنته وسار على مـلَّته.

روى مسلم عن عياض المجاشعي أن رسول اللَّه ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علَّمني.. وإني خلقت عبادي حنفاء[١] كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم[٢] عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطانًا، وإن اللَّه نظر إلى أهل الأرض فمَقَتَهم[٣] عَرَبهم وعجمهم إلَّا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتُكَ لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلتُ عليك كتابًا لا يغسله الماء[٤]، تقرؤه نائمًا ويقظان**»[٥].

---

(١) حنفاء: أي طاهرين مستقيمين فطرتهم سليمة.

(٢) اجتالتهم: اجتال الرجل الشيء؛ أي: ذهب به، والمراد: ذهبوا بهم إلى الباطل وأزالوهم عما كانوا عليه.

(٣) مقتهم: المقت أشد البغض.

(٤) لا يغسله الماء: معناه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه التغيير؛ بل هو ثابت على مرِّ الزمان.

(٥) رواه مسلم (رقم: ٢٨٦٥).

فقد أرسله اللَّه سبحانه ليبتليه ويبتلي به، يبتليه ويختبره بتبليغ الرسالة للناس، وإرشادهم إلى طريق الحق والجهاد في اللَّه حق جهاده، ويختبر الناس به ليظهر من سيؤمن به ويخلص في طاعته، ومن يتخلف عنه ويعاديه ويكفر أو ينافق.

وشتان بين من يحظى بالسعادة باتباعه لهدي النبي ﷺ، ومن يرتكس في الضلال والشقاء بإعراضه عن هدي الإسلام، وإصراره على الكفر والطغيان.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

روضة القلب

إنَّ القلب بلدٌ عامر مأمون، وحصن محكم مَصون، روضة مباركة لا ينفد نعيمها، ولا ينضب مَعينها، تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربها، إنَّ روضة الجسم لا تلبث أن تصبح هشيماً صريماً؛ فينادي صاحبها: واحسرتاه!

أمَّا روضة القلب فهي مُخضَرَّة مثمرة؛ فينادي صاحبها: وافرحتاه!

[رجال الفكر والدعوة - للندوي]

***

الحسنة والسيئة

- عن ابن عباس ﷺ أنه قال: (إنَّ للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق.

وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق) [١].

- قال ابن رجب الحنبلي رحمه اللَّه: (مَن عاش مع اللَّه طاب عيشه، ومَن عاش مع نفسه وهواها طال عيشه) [٢].

***

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية(١٠/ ٦٣٠) .

(٢) شرح حديث« لبيك اللهم لبيك» - لابن رجب(ص ٦٠) .

الصلاة أعظم غذاء للروح

الصلاة صلة بين العبد وربه، يستمد منها القلب القوة، وتحس فيها النفس بالثبات والطمأنينة؛ فهي معراج روحي تسمو به روح المؤمن.

وهذا ما جاء في الحديث الذي رواه أنس بن مالك ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ المؤمن إذا كان في الصلاة؛ فإنما يناجي ربه»[(١)].

ولعل هذا سر من أسرار تكرار الصلاة المفروضة في اليوم خمس مرات، ينتزع فيها الإنسان نفسه من دنياه، وما فيها من أحقاد وصراعات، ويقف بين يدي مولاه لحظات خاشعة يخفف بها عن نفسه من هموم الحياة ومتاعبها، ويغذي الجانب الروحي من كيانه، ذلك الجانب الذي لا يغذيه إلَّا معرفة اللَّه سبحانه وحسن الصلة به، ومناجاته بخشوع، والتقرب إليه بالعمل الصالح.

ولنتأمل مشهدًا من مشاهد هذه المناجاة الفريدة

التي يطير لها القلب فرحًا وسرورًا،

ويحظى بقمةِ السعادة إذا تدبَّرها!

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٠٧)، ومسلم (رقم: ٥٥١).

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « قال اللّه تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، قال اللّه تعالى: حمدني عبدي.

وإذا قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، قال اللّه تعالى: أثنى عليَّ عبدي.

وإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، قال: مجّدني عبدي.

فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل »[١].

ولذلك قال الإمام ابن القيم رحمه اللّه تعالى: (ينبغي للمصلي أن يقف عند كل آية من الفاتحة وقفة يسيرة، ينتظر جواب ربه له؛ وكأنه يسمعه)[٢].

ولا شك أن هذه المناجاة من أعظم أسباب تزكية النفس وتقوية الإيمان، وبلوغ طريق السعادة، إذا هيأ العبد نفسه لها، ولم ينشغل في صلاته بالتفكير في أمور الدنيا، وإنها أقبل عليها المتشوق للوقوف بين يدي ربه الوافد عليه، المستمطر لرحمته وفضله، يستمد العون منه سبحانه في كل أموره وأعماله.

---

(١) رواه مسلم (رقم: ٣٩٥).

(٢) الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة - لابن القيم (ص ٣١).

وإذا أقبل العبد على صلاته بهمَّة ورغبة، واستشعر مناجاته لربه وتضرعه بين يديه، فإن تلك الصلاة تمدُّه بقوة روحية، وتمنحه طمأنينة النفس وراحتها، وتعينه على مواجهة متاعب الحياة؛ ولذلك قال اللَّه تعالى موجهًا عباده إلى أهمية الصلاة في تحقيق الراحة النفسية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]

فالصلاة أكبر عون على مهمات الحياة ومصائبها، يلجأ فيها العبد المكروب إلى ربه، فيجد راحته ويحس بتأييد اللَّه له ورحمته له.

فعن حذيفة ﷺ قال: «كان ﷺ إذا حَزَبه أمر صلى»(١).

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّـه ﷺ: «وجُعِلت قُرَّة عيني في الصلاة»(٢).

وكان الرسول ﷺ يقول: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»(٣).

أي: أقم الصلاة لنستريح بها من مقاساة الشواغل، كما يستريح المتعب إذا وصل إلى مأمنه ومنزله.

وهكذا يشعر المؤمن في صلاته بالسكينة والطمأنينة ويفزع إليها كما يفزع الخائف إلى ركن ركين ومكان أمين.

ولذلك لم تكن الصلوات مقصورة على الفرائض، وإنما هناك سنن ونوافل متنوعة، تزيد من صلة العبد بربه، وتقرُّ بها عينه، وتأمن بها نفسه، حتى تصبح الصلاة سلاحه الدائم، والمفتاح لحلِّ همومه ومشاكله.

ولا شك أن المتأمل للحِكَم العظيمة من صلاة الاستسقاء، والخسوف، وصلاة الحاجة، وصلاة الاستخارة، يدرك الحكمة الربانية

---

(١) رواه أبو داود (رقم: ١٣١٩) والإمام أحمد في المسند (٥/ ٣٨٨)

(٢) رواه النسائي (٧/ ٦٢) والإمام أحمد (٨/ ١٢٨) والحاكم (٢/ ١٦٠) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أبو داود (رقم: ٤٩٦٤) والإمام أحمد (٤/ ٣٦٤)

في توجيه انفعال الخوف والفزع عند المسلم، وتحقيق الراحة والسكن النفسي للمؤمن الذي كلما واجهه كرب أو أحاط به خوف فزع إلى الصلاة والتجأ إليها؛ ولهذا كان السلف الصالح يكثرون من صلوات النوافل وبخاصة في الليل إذا نام الغافلون ولَها اللاهون.

وهكذا تتجلى في كل أفعال الصلاة العبودية للَّه سبحانه، وإقبال العبد على ربه، وتوحيده وتقوية الإيمان به الذي هو أساس التزكية، وهذه أعظم ثمرة من ثمرات الصلاة، وهي التي تنير للعبد طريق حياته، وتمنحه طهارة القلب وطمأنينة النفس.

وعندما يؤدي العبد الصلاة وترتاح بها نفسه؛ فإنها تمده بقوة دافعة لفعل الخيرات والابتعاد عن المنكرات، وتغرس في قلبه مراقبة اللَّه ﷻ ورعاية حدوده، والابتعاد عن الانحراف، والتغلب على نوازع الهوى، ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء، فهي سياج منيع يقيه من الوقوع في المعاصي؛ ولذلك قال اللَّه سبحانه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وبهذا الأثر العظيم من آثار الصلاة تتبوأ تلك العبادة المنزلة السامية في علاج النفس من أمراضها، وتطهيرها من عيوبها وتزكيتها بالعمل الصالح، وغرس الأخلاق الفاضلة، وحسن المعاملة مع الناس، والمسارعة إلى فعل الخير.

ولكن واقع كثير من المسلمين مع الصلاة اليوم مختلف تمامًا؛ لأنها تؤدى بالأجساد دون الأرواح، حتى أصبح البعض يشكك في تأثير الصلاة وثمارها.

فلنسارع إلى أداء الصلاة بتدبرٍ وخشوع؛ لتكون غذاءً للروح وراحة للنفس وطمأنينة للقلب، وعصمة من الانحراف، واتباع الهوى، ومفتاحًا للسعادة والنجاح في الحياة.

● **قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه اللَّه:**

قال بعض العارفين لقوم: ما تعدُّون العيش فيكم؟ قالوا: الطعام والشراب ونحو ذلك؛ فقال: إنما العيش أن لا يبقى منك جارحة إلَّا وهي تجاذبك إلى طاعة اللَّه[1].

● **لما حضر عبد اللّـه بن شداد الوفاةُ دعا ابنه محمدًا، فقال له:**

(يا بني، أوصيك بوصية فاحفظها: عليك بتقوى اللَّه العظيم، وليكن أولى الأمور بك الشكر للَّه، وحسن النيَّة في السر والعلانية، واعلم بأن الشاكر مُزاد، والتقوى خير زاد، وكن يا بني كما قال الحطيئة:

ولسـتُ أرى السعادةَ جمعَ مـالٍ ... ولكنَّ الـتـقـي هـو السـعـيـدُ
وتقـوى اللَّه خـيرُ الـزادِ ذخـرًا ... ومـا لا بُـدَّ أن يـأتي قـريـبُ
وعنـد اللَّه للأتـقـى مـزيـدُ ... ولكـنَّ الـذي يـمضي بعيـدُ[2]

***

(١) كتاب: شرح حديث: « لبيك اللهم لبيك »، لابن رجب (ص ٦٠).

(٢) لباب الآداب - للأمير أسامة بن منقذ (ص ٢٢).

منابع السعادة

البحث عن السعادة هاجس الإنسان في كل مكان، وما أكثر من يخطئ طريقها ويسير وراء أوهام السعادة، فلا يجني إلَّا الشقاء والتعاسة، والمؤمن الحق هو الذي يعرف طريق السعادة والحياة الطيبة فيطمئن للعيش في رحابها، ولا تقف الهموم والمنغصات في وجهه لتحجب عنه تلك السعادة؛ لأن سعادته ينبوع فياض يتفجر كما يتفجر الماء من الصخر نقيًّا عذبًا.

وقد تحدث الشيخ علي الطنطاوي - يرحمه اللَّه - عن هذا الموضوع المهم في مقالات عديدة من كتبه؛ فكان مما قال:

(يحمل الرجلان المتكافئان في القوة الحمل الواحد، فيشكو هذا ويتذمر فكأنه يحمل حملين، ويضحك هذا ويغني فكأنه ما حمل شيئًا، ويمرض الرجلان المتعادلان في الجسم المرض الواحد، فيتشاءم هذا ويخاف ويتصور الموت؛ فيكون مع المرض على نفسه، فلا ينجو منه، ويصبر هذا ويتفاءل، ويتخيل الصحة فتسرع إليه ويسرع إليها...)[1].

ثم يحكي قصة الرجل الذي أصيب في أواخر عمره بتوهم أن في أمعائه ثعبانًا، فراجع الأطباء، وسأل الحكماء فكانوا يدارون الضحك حياءً منه، ويخبرونه أن الأمعاء قد يسكنها الدود ولكن لا تقطنها الثعابين، فلا يصدق، حتى وصل إلى طبيب حاذق بالطب، بصير بالنفسيات، قد سمع بقصته؛ فسقاه مسهِّلًا، وأوهمه أن الثعبان قد نزل منه فأحسَّ بالعافية ونشط جسمه، وكان قبلها يتحامل على نفسه، ويلهث إعياءً ويئن ويتوجع!!

---

(١) صور وخواطر (ص ١٤).

ويختم الشيخ الطنطاوي تلك القصة العجيبة؛ فيقول: (ما شُفي الشيخ؛ لأن ثعبانًا كان في بطنه ونزل؛ بل لأن ثعبانًا كان في رأسه وطار؛ لأنه أيقظ قوى نفسه التي كانت نائمة، **وإن في النفس الإنسانية لقوى إذا عرفتم كيف تفيدون منها صنعت لكم العجائب**)

ثم يقول: (إنكم أغنياء ولكنكم لا تعرفون مقدار الثروة التي تملكونها، فترمونها زهدًا فيها أو احتقارًا لها.

يصاب أحدكم بصداع أو مغص أو بوجع الضرس؛ فيرى الدنيا سوداء مظلمة، فلماذا لم يرها لـمَّا كان صحيحًا بيضاء مشرقة؟

لماذا لا تعرفون النعم إلَّا عند فقدها ؟

لماذا لا نرى السعادة إلا إذا ابتعدت عنا، ولا نبصرها إلا غارقة في ظلام الماضي، أو متشحةً بضباب المستقبل؟

مَن يرضى منكم أن ينزل عن بصره ويأخذ مائة ألف دولار؟

لماذا تطلبون الذهب وأنتم تملكون ذهبًا كثيرًا؟ أليس البصر من ذهب، والصحة من ذهب، والوقت من ذهب؟ فلماذا لا نستفيد من أوقاتنا؟ لماذا لا نعرف قيمة الحياة؟

والذهن البشري أليس ثروة؟ فلماذا نشقى بالجنون ولا نسعد بالعقل؟

إن الصحة والوقت والعقل، كل ذلك مالٌ، وكل ذلك من أسباب السعادة لمن شاء أن يسعد.

وملاك الأمر كله، ورأسه الإيمان، الإيمان يشبع الجائع ويغني الفقير، ويسلي المحزون، ويقوي الضعيف، ويجعل للإنسان من وحشته أُنسًا)

ويختم فضيلة الشيخ الطنطاوي - يرحمه الله - مقالته مخاطبًا القراء بقوله:

(إنكم سعداء ولكن لا تدرون، سعداء إن عرفتم قدر النعم التي تستمتعون بها، سعداء إن عرفتم نفوسكم وانتفعتم بالمخزون من

قواها، **سعداء إن طلبتم السعادة من أنفسكم لا مما حولكم**،سعداء إن كانت أفكاركم دائمًا مع اللَّه؛ فشكرتم كل نعمة، وصبرتم على كل بلية، فكنتم رابحين في الحالين، ناجحين في الحياتين)

وفي مقالة أخرى لفضيلة الشيخ الطنطاوي يتحدث عن ميزان السعادة؛ ويؤكد أن القناعة والرضا وعدم الحسرة على ما لا يمكن إدراكه، وطمأنينة النفس وغناها هي ميزان السعادة، فيقول يرحمه اللَّه:

(يحسب الإنسان أنه كلما كثر ماله، وزاد اطلاعه، وعلت منزلته كبرت سعادته، **وينسى أن السعادة هي قِصر المسافة بين ما تجده وما تتمناه**،فمن كان يجد عشرة ويتمنى عشرين، فسعادته تنقص عشرة، ومن كان معه ألف ويطلب ألفين فنقص سعادته ألف.

فنحن نَحِنُّ إلى أيام الطفولة ونتمنى عودتها، ونأسى على فقدها؛ لأننا لم نكن نطلب فيها إلَّا القليل)

وهكذا يؤكد فضيلته أن الرضا بما قسم اللَّه يحقق السعادة، وأن اللاهث وراء حطام الدنيا وأموالها لن يشبع منها مهما اجتمعت لديه كنوزها، وسيبقى في شقاء وهو يبحث عن المزيد.

وصدق الرسول ﷺ وهو يبين خطر طغيان شهوة حب المال حتى يكون صاحبها شقيًّا بسببها؛ فيقول ﷺ: **لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فمه إلَّا التراب، ويتوب اللَّه على من تاب** »

يقول ﷺ أيضًا: «**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أُعطي رضيَ، وإن لم يُعطَ سخط** »

( ) من تقديم الشيخ علي الطنطاوي لكتاب أخيه الشيخ ناجي: «كلمات نافعة » (ص ٧).

( ) رواه البخاري (٧/ ١٨٧).

( ) رواه البخاري (٣/ ٢٢٣).

وفي هذا بيان لحالة البؤس التي يحياها المتعلقون بحب الدنيا ممن استعبدتهم المطامع والأهواء، حتى أصبحوا في شقاءٍ لا ينقطع، وخوفٍ لا يهدأ، ونفسٍ دائمة الاضطراب.

لا تجزع

فلا تجزع وإن أُعسرت يومًا
فقد أيسرتَ في الزمن الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفرٌ
لعل اللَّه يغني عن قليل
فإن العُسر يتبعه يسارٌ
وقول اللَّه أصدقُ كل قيل

عُقبى الصبر

إني أقول لنفسي وهي ضيقةٌ
وقد أناخ عليها الدهر بالعجب
صبرًا على شدة الأيام إنَّ لها
عقبى، وما الصبر إلا عند ذي الحسب
سيفتح اللَّه عن قرب بنافعةٍ
فيها لمثلكِ راحاتٌ من التعبِ

***

من دُررِ الحِكَم (١)

● مَن أبرم الأمر بلا تدبير صَيَّره ذلك إلى تدمير.

● مَن أعجبته آراؤه غلبتهُ أعداؤه، ومَن ساء تدبيره كذب تقديرُه، ومَن جهل مواطئ قدمه عثر بدواعي ندمه.

● الكسل يمنع من الطلب، والفشل يدفع إلى العطب، ومِن حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العلماء، ويجمع إلى عقله عقلَ الحكماء.

طريق الفلاح

قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه اللَّه:

(مَن ملك نفسه وقهرها عزَّ بذلك؛ لأنه انتصر على أشد أعدائه وقهره وأسره واكتفى شرَّه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]. فحصر الفلاح في وقاية شح نفسه ..

ومَن عصمه اللَّه وحفظه: وقاهُ شحَّ نفسه وشرها، وقوَّاه على مجاهدتها ومعاداتها.

ومَن وكله إلى نفسه: غلبته وقهرته وأسَرَته وجرَّته إلى ما هو عين هلاكه)(٢).

***

(١) ينظر: لباب الآداب – للأمير أسامة بن منقذ (ص ٦٠).

(٢) ينظر كتاب: شرح حديث: « لبيك اللهم لبيك » لابن رجب (ص ١٣٠).

أجنحة السعادة

الدنيا دار ابتلاء، والعبد الموفَّق هو الذي يقابل النعماء بالشكر، ويقابل الضراء بالصبر؛ ليحيا مطمئن النفس، وإذا أكرمه اللَّه ﷻ بالصحة في البدن، والأمن في الديار، والرضا بالرزق المقسوم، فقد تحققت له الدنيا بحذافيرها، فليحلِّق بهذه الأجنحة الثلاثة في أجواء السعادة، وليهنأ بهذه النِّعم التي لا يعرف قيمتها حقًّا إلا مَن حُرم منها.

روى الترمذي، وابن ماجه عن عبد اللَّه بن محصن ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **مَن أصبح منكم آمنًا في سِربه، معافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها** »[1].

فتأمل معي هذا الحديث النبوي البديع الذي يحدِّد دعائم السعادة لأهل الإيمان؛ إذ المؤمن يحظى بالسعادة بما أكرمه اللَّه ﷻ به من الإيمان واليقين والرضا، ثم هو بعد ذلك يزيد من دعائم سعادته بما وهبه اللَّه من نِعم وآلاء، وأبرزها هذه الأمور الثلاثة:

١ - الأمن والطمأنينة النفسية.

٢ - صحة الجسد والمعافاة من الأسقام.

٣ - كفاية قوته من وجه الحلال.

(١) رواه الترمذي (رقم: ٢٣٤٦)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (رقم: ٤١٤١)، ورواه البخاري في الأدب المفرد (رقم: ٣٠٠)، وابن حبان في صحيحه (رقم: ٢٥٠٣).

وقوله ﷺ: «آمنًا في سربه» معناه: في نفسه وعياله وبيته وطريقه، وقد ذكر بعض شرّاح الحديث أن السرب يقال: للبيت الضيق تحت الأرض، فيكون المراد من الحديث المبالغة في حصول الأمن ولو في بيت ضيق[1]؛ لأن الطمأنينة النفسية تجعله فسيحًا مريحًا، وأما القلق والخوف؛ فإنه يضيّق على صاحبه، ولو كان يعيش في القصور الشاهقة، وقد قال الشاعر:

إذا اجتمع الإسلام والقوت للفتى ... وكان صحيحًا جسمُه وهو في أمنِ

فقد ملك الدنيا جميعًا وحازها ... وحَقَّ عليه الشكر للّٰه ذي المنِّ

ولتلاحظ تأكيد النبي ﷺ على أهمية هذه الدعائم للسعادة بقوله: «فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» أي: بتمامها؛ لأن القناعة المغروسة في نفس المؤمن مكّنتهُ من التحليق في أجواء السعادة، وتحقيق الحياة الطيبة بتلك النعم المباركة، وما يسعى إليه الآخرون من التهافت على مكاسب الدنيا وشَرَهِ النفس لطلب المزيد من حطامها، كل ذلك لن يزيد في سعادة المرء؛ لأنها مظاهر خادعة يركن إليها الإنسان ويفرح بها حينًا، لكنه سرعانَ ما يملُّها ويطلب غيرها، ويزداد حسرة وقلقًا إن لم يظفر بالمزيد، ولو أُعطيَ واديًا من ذهب لتمنّى أن يكون له واديان !!

وما أحسن قول الشاعر:

كم من فقيرٍ غني النفس نعرفه ... ومن غنيٍّ فقير النفس مسكينُ

وقال الحطيئة:

يقولون يستغني، وواللّه ما الغنى ... من المال إلا ما يكفُّ وما يكفي

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي - للمباركفوري (٧ / ١٠)

وقال آخر:

إذا ما كساك اللّه سربال صحةٍ ولم تَخْلُ من قوتٍ يحِلُّ ويَعذُبُ

فلا تحسدنَّ المكثرين فإنهم على قدرما يكسوهم الدهر يسلبُ

فالقناعة كنز لا ينفد، وهي التي تمنحك التفاؤل، وتُبعدك عن القلق والهموم.

إن القناعة مَن يحلُلْ بساحتها لم يلقَ في دهره همًّا يُؤرِّقه

ومن رحمة اللّه سبحانه بعباده أنه جعل نبع سعادتهم داخل نفوسهم، قريبَ المنال منهم، وجعل الغنى الحقيقي غنى النفس وليس كثرة المال؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»[1]، وقال أيضًا: «قد أفلح مَن أسلم وكان رزقه كفافًا، وقنَّعه اللّه بما آتاه»[2]، وفي رواية: «طوبى لـمَن هُدي للإسلام، وكان عيشه كَفافًا وقنع»[3].

***

(١) رواه البخاري (رقم: ٦٠٨١)، ومسلم (رقم: ١٠٥١).

(٢) رواه مسلم (رقم: ١٠٥٤).

(٣) رواه مسلم (رقم: ١٠٥٤).

اليأس داء قاتل

الحياة الطيبة والعيش الهنيء وإشراقة النفس مطلبٌ يتمناه كل إنسان، ويسعى لبلوغه بمختلف السبل، ولكن الذي يظفر به هو المؤمن الصالح المستقيم على هُدى ربه سبحانه؛ فهو مطمئن البال لا يضطرب ولا يقلق.

وفي ذلك يقول اللَّه تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣].

ويقول ﷻ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقد أوضح الإمام ابن القيم - رحمه اللَّه - المراد بالحياة الطيبة في هذه الآية الكريمة فقال: (الصواب أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان، ومعرفة اللَّه ومحبته، والإنابة إليه والتوكل عليه).

ثم قال: (وإذا كانت حياة القلب حياةً طيبة تبعتْهُ حياة الجوارح، فإنه ملكها، ولهذا جعل اللَّه المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره، وهي عكس الحياة الطيبة)[١].

ومن منحه اللَّه سبحانه الحياة الطيبة حظي بالتوفيق والتسديد في أعماله، وكسب محبة العباد ونال ثقتهم، وفاض قلبه بالأمل فلم يعرف اليأس إليه طريقًا أبدًا.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٥٩).

واليأس سمٌّ زعاف يميت القلوب، ويقتل النفوس، ويضيق الصدور، ويُظلم وجه الحياة، ويقبّح محاسنها، ويضاعف أعباءها، ويجعلها طريقًا صحراويًّا مخيفًا، يترقب صاحبه الموت في كل خطوة، ويتوهم السلب في كل حين حتى ولو لم يكن معه درهم ولا دينار.

ولذلك ترى اليائس في الحياة قلقًا فزعًا، لا تثبت له قدم في عمل، ولا يستقر له قول على رأي، ولا يتم له نجاح في مشروع، ينتهي كلما بدأ، ويفتر كلما همَّ، ويقعد كلما قام؛ فهو متبرم ضجر، وسئم ملول،.. العسل في فمه أمرُّ من الصبر، والحرير في يده أخشن من الشوك، والدنيا في عينه أضيق من سَمِّ الخِياط.

ومثل هذا يقضي حياته ظمآنًا وإن كان في النهر، وجائعًا وإن نزلت عليه ألف مائدة من السماء، وبائسًا شقيًّا وإن كان في جنات ونعيم(١).

أُعلِّل النفسَ بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فُسحة الأمل

إلَّا أنَّ الأمل الكبير يحتاج إلى شخصيةٍ قوية وإرادةٍ فتية، وعزيمةٍ صادقة، وقلبٍ صلب، وعقلٍ ذكي، وعينٍ ساهرة، ومرونةٍ ناضجة، وخبرةٍ واسعة، وصبرٍ جَلِد.

مَنْ رام وصل الشمس حاكَ خيوطها ... سببًا إلى آماله وتعلَّقا

ومن هنا نستطيع أن نحكم على الإنسان بأعماله وآماله، فترى صاحب الأمل الكبير عالي الهمة، دؤوب العمل، كثير البذل، سريع التضحية، أمَّا صاحب الأمل القصير؛ فهو خنوع مُهان، وعاجز جبان.

ولهذا قيل: لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة.

---

(١) ينظر: صرخات على المنبر - للشيخ أحمد الشهاوي (ص ٣٧).

احذروا اليأس فهو داء قاتل:

أجل.. إذا يئس المريض من الشفاء ترك الدواء، وزادت عللهُ وأمراضه بما يعتريه من كآبة وبؤس، حتى يغدو كالميت وإن كان يعيش بين الأحياء.

والعبد المذنب إذا كثرت ذنوبه وسُدَّ أمامه باب التوبة، وتوهَّم أن طريق العودة إلى ربه مقفل في وجهه، فإنه سيصاب باليأس، وينظر إلى الحياة نظرة سوداء قاتمة، وتخبو آخر ومضة من نور الإيمان في قلبه، ويتحول عن الإنسانية التي كرَّمه اللّـه بها إلى درجة أخس من البهائم، ويصبح شرًّا مستطيرًا على كل من حوله؛ لذا حذرنا ربنا سبحانه من اليأس والقنوط من رحمته، وأمرنا أن نسارع إلى التوبة والندم.

فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال ﷻ: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

ولقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنهم أن نبي اللّه ﷺ قال: « **كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمَّل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون اللّه فاعبد اللّه معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء؛ فانطلق حتى إذا نَصّف الطريق أتاه الموت،**

فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى اللَّه.

وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط.

فأتاهم مَلَك في صورة آدمي فجعلوه بينهم؛ فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له فقاسوه؛ فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة »، وفي رواية: « فأوحى اللَّه إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرَّبي »[١].

فالعابد الجاهل الذي سد باب التوبة أمام هذا التائب كان سببًا في إصابته باليأس، وعودته إلى ارتكاب جريمة القتل، ولكن هذا اليأس لم يدم طويلًا، فقد عاوده الرجاء ثانية ليسأل عن عالم يفتيه في قبول توبته، فلما أفتاه العالم وأرشده إلى طريق التوبة سارع بلا تردد ليحيا من جديد مع قوم أطهار، وبادر بالسفر إلى القرية الصالحة ليعبد اللَّه مع أهلها، وأقبل على ربه بتوبة صادقة فكان أهلًا لسعة رحمة اللَّه تعالى.

وهكذا أعاد الرجاء إلى هذا العبد ثقته بنفسه وشعوره بإنسانيته، وزالت الحجب الكثيفة عن فطرته فبادر إلى التوبة، وحطم حواجز اليأس القاتل، ولو أنه استسلم لليأس، وقنط من رحمة ربه، ومات على ذلك لخسر خسرانًا مبينًا.

● وهناك نوع آخر من اليأس يُحدق بالإنسان أحيانًا، وهو اليأس من الفرج عند احتدام البلايا والمصائب، وهذا خطر على عقيدة المسلم؛ لأنه يُضعف ثقته باللَّه ﷻ، وقد أمرنا اللَّه سبحانه بالدعاء ووعدنا بالإجابة، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

* * *

(١) رواه مسلم (رقم: ٢٧٦٦).

الفرج بعد الشدة

يا صاحب الهم إنَّ الهم منفرجٌ   أبشرْ بخيرٍ فإن الفارج اللَّه
اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه   لا تيأسنَّ فإن الكافيَ اللَّه
اللَّه يُحْدث بعد العسر ميسرةً   لا تجزعنَّ فإن الصانع اللَّه
إذا بُليت فثقْ باللَّه وارضَ به   إن الذي يكشف البلوى هو اللَّه
واللَّه ما لكَ غير اللَّه من أحدٍ   فحسبك اللَّهُ في كلٍّ لك اللَّه

***

ميزان السعادة

السعادة لها ميزان، وهو بيدك إن شئت وزنتَ به، أو كنت من المطففين.

عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: « **انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة اللَّه عليكم** »[١].

وفي رواية للبخاري: « **إذا نظر أحدكم إلى من فُضل عليه في المال والخَلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه** »[٢].

وفي هذا الحديث دواء لداء الحسد والتشكي من الأقدار؛ فالنفس التي تتطلع إلى الآخرين لن ترضى بحال من الأحوال، وكلما بلغت درجة من الغنى والجاه تعوَّدَتْها فملَّتها وتطلعت إلى المزيد، فهي دائمًا في تلهف إلى كثرة المال وتعلُّق به، وسخط وحسرة وازدراء للنعم وجحود للمنعم، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: « **لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلَّا التراب، ويتوب اللَّه على من تاب** ».

وفي رواية: « **لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلَّا التراب، ويتوب اللَّه على من تاب** »[٣].

---

(١) رواه مسلم (رقم: ٢٩٦٣).

(٢) رواه البخاري (رقم: ٦١٢٥).

(٣) رواه البخاري (رقم: ٦٠٧٢).

فإذا اتبع المسلم هذه الوصية النبوية فإنه سيعرف قدر النعمة، ويرضى بها قسم اللَّه له، وينال القناعة ويحظى بالسعادة ولو كان مبتلى بالفقر أو المرض أو المصائب المختلفة.

لأنه إن كان فقيرًا لا يملك وفرة من المال فلينظر إلى من ابتلي بالفقر المدقع والجوع الشديد، وإن كان مريضًا يشكو من بعض الآلام فلينظر إلى من ابتلي بعاهة أو مرض مزمن خطير، وهكذا يبقى دائمًا مقدرًا للنعمة راضيًا بما قسم اللَّه له شاكرًا صابرًا.

ولو أخذ المسلمون اليوم بهذه الوصية النبوية لسعدت أحوالهم واستقامت أوضاعهم، وعرفوا الثمرة الحقيقية للإيمان بالقضاء والقدر، وسارعوا إلى التنافس في التقوى والعمل الصالح والتقرب إلى اللَّه، عوضًا عن التنافس على حطام الدنيا.

● **قال الإمام ابن القيم – رحمه اللَّه – في كتابه (عُدَّة الصابرين):**

(كل أحدٍ لا بد أن يصبر على بعض ما يكره، إمَّا اختيارًا وإمَّا اضطرارًا؛ فالكريم يصبر اختيارًا لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يُحمد عليه، ويُذَمُّ على الجزع، وأنه إن لم يصبر لم يرد الجزع عليه فائتًا.. وإن كان الجزع لا ينفعه فإنه يجعل المصيبة مصيبتين.

وأمَّا اللئيم فإنه يصبر اضطرارًا؛ لأنه يحوم حول ساحة الجزع فلا يراها تجدي عليه شيئًا، فيصبر صبر الموثَق للضرب)[1].

* * *

(١) عدة الصابرين (ص ٤٥).

الوصايا السبع في طريق السعادة

عن أبي ذر ﷺ أنه قال: « أمرني خليلي ﷺ بسبع:

١ - أمرني بحب المساكين والدنُوِّ منهم.

٢ - وأمرني أن أنظر إلى مَن هو دوني ولا أنظرَ إلى مَن هو فوقي.

٣ - وأمرني أن أصلَ الرحم وإن أدبرت.

٤ - وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا.

٥ - وأمرني أن أقول الحق وإن كان مُرًّا.

٦ - وأمرني أن لا أخاف في اللّٰه لومةَ لائم.

٧ - وأمرني أن أُكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا باللّٰه، فإنهن من كنز تحت العرش »(١).

وفي رواية: « فإنها كنز من كنوز الجنة ».

الوصايا الخمس

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّٰه ﷺ قال:

« مَن يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهنَّ أو يعلِّم مَن يعمل بهن ؟ ».

فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول اللّٰه.

فأخذ بيدي فعدَّ خمسًا، فقال:

١ - « اتقِ المحارم تكن أعبد الناس.

٢ - وارضَ بما قسم اللّٰه لك تكن أغنى الناس.

٣ - وأحسِنْ إلى جارك تكن مؤمنًا.

٤ - وأحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا.

٥ - ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب »(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ١٥٩)، وابن حبان (رقم: ٢٠٤١)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (رقم: ٢١٦٦).

(٢) رواه الترمذي (٢/ ٥٠)، والإمام أحمد (٢/ ٣١٠)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم: ٩٣٠).

يقظة الفطرة عند الشدائد

كانت آيات القرآن تنزل في مكة المكرمة سنوات طويلة؛ لتثبيت عقيدة التوحيد في النفوس، والرد على المعاندين الذين انحرفوا عنها، وقد ألزم اللَّه المشركين بما أقروا به من الاعتراف بأن اللَّه هو الخالق سبحانه، فأقام الحجة عليهم بوجوب توحيده سبحانه وإفراده بالعبادة والطاعة، وأظهر عجز آلهتهم المزعومة، وأنها لا تملك ضرًّا ولا نفعًا، وأن ما يحوط الإنسان من النعم إنما هو من عند اللَّه سبحانه.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢١،٢٢].

وأبرز ما تركز عليه آيات القرآن الكريم في تثبيت عقيدة التوحيد إيقاظ الفطرة؛ فالإنسان إذا انطمست فطرته وأظلم قلبه، انحرف عن التوحيد، وادعى الاستغناء عن خالقه، فإذا ألـمَّت به الشدائد، وأيقن بالهلاك لجأ إلى اللَّه وحده وأخلص التوجه إليه بالدعاء، وأظهر افتقاره وتذلُّلـه لخالقه سبحانه، وسرعان ما ينكص على عقبه ويبتعد عن خالقه بمجرد زوال الخطر.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس ٢٢، ٢٣].

فانظر إلى هذا المثل القرآني الذي يصوِّر حالة قاسية من الشدائد؛ فلقد كان هؤلاء الركاب فرحين بالريح الطيبة الهادئة التي تسيِّر مركبهم، وإذا بالريح العاصف والأمواج العاتية تحيط بهم من كل جانب، ويدبُّ في نفوسهم اليأس من كل محاولة للنجاة، وهنا تتوجه القلوب إلى ربها بصدق.

فالإنسان في حالة الرخاء قد ينسى خالقه، ولكنه عند الشدائد والكرب الشديد لا يلجأ إلَّا إلى اللّـه؛ لأن التوحيد فطرة في نفسه، أما الشرك والإلحاد؛ فهو غطاء خادع يغشي النفس ويحيط بها.

ولذلك تجد الكافر عديم الثقة بالحياة، دائم الاضطراب والقلق؛ لأنه يواجه الحياة دون اعتماد على خالقه، وإذا تهددته المخاطر انهارت أعصابه وخارت قواه، فهو كريشة في مهب الريح، دائم القلق والحيرة، والتذلل للناس أو التعالي عليهم بحسب مقتضى الأحوال.

أما المؤمن الموحِّد الذي تيقظت فطرته فإنه يحيا حياة حرة كريمة، يشعر فيها بإنسانيته، ويدرك أن لوجوده قيمة وغاية، ولحياته رسالة، وينعم بسكينة النفس وطمأنينة القلب، ويخلِّص نفسه من أسْرِ العبودية للبشر؛ لينال العزة والسمو بعبوديته للخالق سبحانه.

فهل ترضى أن تعيش في الغفلة مُعرضًا عن ربك ولا تلجأ إليه إلا عند الشدائد؟!

إن المؤمن الصادق يجد راحته وسروره في التقرب من مولاه في جميع أموره وأحواله، ومن أراد أن يستجيب اللّه له عند الشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء.

أحباء الله

قال الإمام ابن رجب:

(إن أحباء اللَّه هم الذين ورثوا طيب الحياة، وذاقوا نعيمها بما وصلوا إليه من مناجاة حبيبهم، وبما وجدوه من حلاوة حبه في قلوبهم ... ما طابت الدنيا إلَّا بذكره، ولا طابت الآخرة إلَّا بعفوه، ولا طابت الجنة إلَّا برؤيته)[١].

من بدائع الحكم

- فقد الصبر أعظم مصائب الدهر.
- كثرة الذنوب مفسدة للقلب.
- لقاء الأحبة مسلاةٌ للهموم.
- روضة العلم أزينُ من روضة الرياحين.

* * *

(١) ينظر كتاب: شرح حديث « لبيك اللهم لبيك » لابن رجب (ص ٩٠).

قد أفلح من زكاها

قال الإمام ابن تيمية رحمه اللَّه:

(البِر والتقوى يبسط النفس ويشرح الصدر، بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعًا وبسطًا.. والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها .. فالنفس البخيلة الفاجرة قد دسَّها صاحبها في بدنه بعضها في بعض، ولهذا وقت الموت تُنزع من بدنه كما يُنزع السفود من الصوف المبتل.

والنفس البرَّة التقيَّة النقيَّة التي قد زكاها صاحبها، فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت، فوقت الموت تخرج من البدن تسيل كالقطرة من فم السِّقاء، وكالشعرة من العجين).

[مجموع الفتاوى: ١٠/ ٦٣٠]

***

الشجرة الطيبة وعطاء المسلم

من بدائع التوجيهات النبوية ضربُ المثل للمسلم بشجرة النخل لغرس الفضائل في نفوس الصحابة ﷺ بأسلوب مشوِّق مستمدٍّ من أمثلةٍ محسوسة وواقع مألوف لديهم.

روى البخاري ومسلم عن عبد اللَّه بن عمر – رضي اللَّه عنهما – قال: (بينا نحن عند النبي ﷺ جلوس، فقال:

« إنَّ من الشجر شجرةً خضراء، بركتها كبركة المسلم، لا يسقط ورقها، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وإنها مِثْلُ المسلم، فحدثوني ما هي؟ ».

قال عبد اللَّه: فوَقَعَ الناسُ في شَجَرِ البَوَادي، فقال القوم: هي شَجَرةُ كذا، هي شَجَرةُ كذا، ووَقَع في نَفْسِي أنَّها النَّخْلَة، فجَعَلْتُ أُرِيدُ أن أقولَها، فإذا أَسْنانُ القوم، فأَهابُ، أن أتكلَّم وأنا غلامٌ شابّ، ثم التَفَتُّ فإذا أنا عاشِرُ عَشْرٍ أنا أحدَثُهم أصغَرُ القوم، ورأيتُ أبا بكر وعُمَر لا يَتكلَّمان، فسَكَتُّ.

فلما لم يتكلَّما، قالوا: حدِّثنا ما هِيَ يا رسول اللَّه؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: « هي النَّخْلَة ».

فلما قُمنا قُلتُ لعُمَر أبي: واللَّه يا أَبَتَاهُ، لقد كان وَقَعَ في نفسي أنها النَّخْلَة، فقال: ما منَعَك أن تقولَها ؟ قلتُ: لم أرَكم تَتكلَّمون، لم أرَكَ ولا أبا بكر تكلَّمتُما، وأنا غلامٌ شابّ، فاستَحْيَيْتُ، فكرِهتُ أن أتكلَّم أو أقول شيئًا، فسكتُّ. قال عُمَر: لأن تكونَ قُلتَها

أحبُّ إليَّ من أن يكونَ لي كذا وكذا)(١).

وهذا الحديث النبوي حافل بالتوجيهات، وغرس الفضائل بأسلوب تربوي غير مباشر، وذلك بضرب المثل الذي يربط بين الواقع المحسوس المألوف للناس، وما ينبغي لهم التمسك به من محاسن الأخلاق، ولو تأملنا هذا المثل لوجدنا أوجهًا كثيرة للتشبيه بين النخلة والمسلم، وذلك على النحو التالي:

النخلة شجرة من أجود الشجر وأعلاها مرتبة في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام، فإنه من حين طلوعه لا يزال يؤكل أنواعًا: بلحًا ورطبًا وتمرًا وغير ذلك.

وإذا يَبِسَتْ النَّخْلَةُ يُتَّخَذُ منها منافعُ كثيرة، فخَشَبُها، ووَرَقُها، وأغصانُها، تُستَعمَلُ جُذوعًا وحَطَبًا وعِصيًّا ومَخاصِرَ وحِبالًا وأوانيَ وغيرَ ذلك. ثم آخِرُ شيء يُنتفَعُ به منها هو نَواها، فإنه يُتَّخَذُ عَلَفًا للإبل.

أمَّا جَمالُ نَباتِها ووَرَقِها، وحُسْنُ خِلْقَتِها وثَمَرِها، وفارِعُ طولِها وانبساقِها، ودَوامُ خُضرة أوراقِها، وتماسُكُ جِذْعِها أن تَلعَبَ به الرياح والأعاصير، وكريمُ ظِلِّها وفَيْئِها، لمن كان في جزيرة العرب: فمنافعُ مشهودة، ومُتَعٌ متكاثرةٌ معروفة محمودة، وقد مدَحَها اللَّه في القرآن بآياتٍ كثيرة أيَّما مَدْح.

وكذلك المُسْلِم أو المُؤْمِن كلّه خيرٌ ونَفْع، وبَرَكَتُه عامَّة في جميع الأموال، ونفعُه مستمِرٌّ له ولغيرِه حتى بعد موته؛ فهو ذو عَمَلٍ صالح، وقولٍ حسن، كثيرُ الطاعات على ألوانها، ما بين صائمٍ ومُصَلٍّ، وتالٍ للقرآن، وذاكرٍ للَّه، ومُذكِّرٍ به، ومُتَصَدِّقٍ، وآمِرٍ بالمعروف، وناهٍ عن المنكر.

---

(١) رواه البخاري (رقم: ٦١) ومواضع أخرى، ومسلم (رقم: ٢١٦٥).

يُخالِطُ الناس ويَصبِرُ على أذاهم، آلِفٌ مألوف، يَنفعُ ولا يَضُرُّ، جميلُ المَظهرَ والمَخبَر، مَكارمُ أخلاقِه مبذولة للناس، يُعطي ولا يَمنع، ويُؤْثِرُ ولا يَطمَع، لا يَزيده طُولُ الأيام إلا بُسُوقًا وارتفاعًا عن الدنايا، ولا تَجِدُ فيه الشَّدائِدُ والأهوالُ إلَّا رُسُوخًا على الحق وثباتًا عليه، وسُمُوًّا إلى الخيرِ والنفع، وشُفُوفًا عن السَّفاسِف.

عَمَلُه صاعِدٌ إلى ربِّه بالقبول والرضوان، إنْ جالسْتَه نَفَعَك، وإنْ شاركْتَه نَفَعك، وإنْ صاحَبْتَه نَفَعك، وإن شاوَرْتَه نَفَعك، وكلُّ شأن من شؤونه مَنْفَعَة، وما يَصْدُر عنه من العلوم؛ فهو قُوتٌ للأرواح والقلوب، لا يَزالُ مستورًا بدِيْنِه، لا يَعرَى من لِباسِ التقوى، ولا يَنقطِعُ عملُه في غِنًى أو فقر، ولا في صِحَّةٍ أو مرض.

بل لا يَنقطِع عملُه حتى بعدَ موتِه، إذا نَظَر من حياتِه لآخِرَته، واغتَنَم من يومِه لِغَدِه، يُنتَفَعُ بكل ما يَصْدُرُ عنه حَيًّا وميتًا؛ إذْ مَبْعَثُ تصرُّفاتِه كلِّها الإيمانُ باللَّه، والنفعُ لعبادِ اللَّه، سبحانَ اللَّه ما أعظم المؤمن[1]؟!

فلتنظر إلى نفسك أخي القارئ، هل تشبه النخلة في عطائك وسموّك وانتفاع الناس بما لديك من الخير؟

لقد اختلفت طباع الكثيرين اليوم، وسيطرت عليهم الأحقاد، والأنانية، وحسد الآخرين، والتحايل عليهم لكسب مصالح شخصية، فلا بدَّ من عودةٍ للخُلق القويم الذي يحقق لنا سعادة الدارين، ويمنح مَنْ حولنا ثمرات هذه السعادة ليكون كلٌّ منا كالشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

---

(١) ينظر كتاب: الرسول المعلم - للشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ص ١٠٤).

القلب العامر بالحب

قال الإمام ابن تيمية رحمه اللَّه:

(الإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشتُه؛ فإن له من الحلاوة واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه..واللذة تتبع المحبة، فمَن أحبّ شيئًا ونال ما أحبّه وجد اللذة به ..

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم .. وكل ما يُحَبُّ سواه فمحبته تبعٌ لحبه).

[مجموع الفتاوى: ١٠/٦٤٨]

خمس خصال

قال الإمام الشافعي رحمه اللَّه:

(خير الدنيا والآخرة في خمس خصال:

- غنى النفس.
- وكـفُّ الأذى.
- وكسب الحلال.
- ولباس التقوى.
- والثقة باللَّه ﷻ على كل حال.

[بستان العارفين للنووي: ص ١٣٠]

السبَّاقون

قال الإمام ابن الجوزي رحمه اللَّه:

(للَّه أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها، فهم يبالغون في كل علم، ويجتهدون في كل عمل، ويثابرون على كل فضيلة، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيَّات نائبة، وهم لها سابقون).

[صيد الخاطر: ص ٢٤٥]

اختر لنفسك الصديق الصدوق

عن ابن عباس ﷺ قال: قيل يا رسول اللَّه: أيُّ جلسائنا خير؟ قال: « مَن ذكَّركم اللَّه رؤيتهُ، وزاد في علمكم منطقهُ، وذكَّركم في الآخرة عمله »[1].

وقد تحدَّث الإمام الماوردي عن أقسام الأصدقاء بحسب ما يقدمونه من عون لمن صاحَبهم، وما يطلبون مقابله من استعانة، فذكر أن الأصدقاء أربعة[2]:

١ – منهم من يُعين ويستعين.

٢ – ومنهم من لا يُعين ولا يستعين.

٣ – ومنهم من يَستعين ولا يعين.

٤ – ومنهم من يعين ولا يستعين.

● فأما القسم الأول: الذي يعين ويستعين؛ فهو مُعاوِض منصِف، يؤدي ما عليه ويستوفي مالَه، فهو كالمقرض يُسعف عند الحاجة ويستردُّ عند الاستغناء، وهو مشكور في معونته ومعذور في استعانته.

● وأما القسم الثاني: الذي لا يُعين ولا يستعين فهو متروك، فهو لا صديق يُرجى ولا عدوٌّ يُخشى، فلا هو مذموم لقمع شرِّه، ولا هو مشكور لمنع خيرهِ وإن كان باللوم أجدر.

---

(١) رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٩).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص ١٧٢).

● **وأمَّا القسم الثالث:** الذي يستعين ولا يُعين فهو لئيم مَهين، فلا خيرهُ يُرجى ولا شرُّه يُؤمَن.. فليس لمثله في الإخاء حظٌّ، ولا في الوِداد نصيب.

قال بعض الحكماء: شرُّ ما في الكريم أن يمنعك خيرَه، وخيرُ ما في اللئيم أن يكفَّ عنك شرَّه.

● **والقسم الرابع:** هو الذي يُعين ولا يستعين، فهو كريم الطبع مشكور الصنع، وقد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء، فلا يُرى ثقيلًا في نائبةٍ، ولا يقعد عن نهضة في معونةٍ؛ فهذا أشرف الإخوان نفسًا وأكرمهم طبعًا فينبغي لمن وجد مثله - وقَلَّ أن يكون له مِثل - أن يَثنيَ عليه خِنصره، ويعضَّ عليه بناجذه، ويكون به أشدّ ضِنًا منه بنفائس أمواله؛ لأن نفع الإخوان عام، ونفع المال خاص، ومن كان أعمَّ نفعًا فهو بالادخار أحق.

وقد قال الفرزدق:

يمضي أخوك فلا تلقى له خَلَفًا والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وقال آخر:

لكل شيء عدِمتَه عوضٌ وما لفقد الصديق من عِوَضِ

ابحث عن الجليس الصالح:

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك؛ إما أن يُحذيك، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير؛ إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد منه ريحًا خبيثة»(١).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٦)، ومسلم (رقم: ٢٦٢٨).

وفي هذا المثل النبوي المحكم إشارة إلى درجات التأثير لكلٍّ من الجليس الصالح وجليس السوء، فالجليس الصالح كحامل المسك، إما أن يحذيك؛ أي يمنحك من إرشاداته ونصائحه وعلمه، وإما أن تقتبس منه ما يصلح أحوالك ويدلك على الخير، وإن لم يكن هذا ولا ذاك؛ فإنك على أقل الأحوال ستكسب من مجالسته السمعة الحسنة بين الناس، ولا بد أن تتأثر من سلوكه وأخلاقه، فإن مجالسته تذكرك باللَّه فلا تقع في المعاصي ولا تفكر فيها.

أمَّا جليس السوء: فإنك بمصاحبته تعرِّض نفسك لخطر الانحراف في طريق الفساد، حتى تصبح مثله في ضلاله فيحرق إيمانك كما يحرق نافخ الكير ثياب من اقترب منه، ولو أنك سلمت من التأثر به في بادئ الأمر، وكنت حذرًا في مجالسته، فإنك لن تسلم من السمعة السيئة، والتأثر النفسي الذي هو بداية للتأثير في السلوك، وذلك ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»، فمن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

فالصاحب ساحب ولو بعد حين، ومن ادعى أنه لا يتأثر بمصاحبة الأشرار فقد أخطأ؛ لأن أثر الصحبة السيئة يبدأ في القلب الذي يدخله الميل إلى المعصية والرغبة فيها وعدم إنكارها، ويزداد ذلك التأثر حتى ينعكس على السلوك والأفعال، وبمقدار ما يدخل ذلك القلب من ظلمة المعصية يخرج منه من نور الإيمان.

الصديق وقت الضيق[1]:

● قيل لأعرابي: من أكرم الناس عِشرةً؟

قال: (مَن إن قرُب مَنح، وإن بَعُد مَدَح، وإن ظُلم صفح، وإن ضُويق فَسح، فمن ظفر به فقد أفلح ونجح).

● وكتب آخر إلى صديق له: مثلي هفا، ومثلك عفا. فأجابه: مثلك اعتذر، ومثلي اغتفر.

● وقال أبو حاتم السجستاني: (إذا مات لي صديق سقط مني عضوٌ).

● وقال ميمون بن مهران: (صديق لا تنفعك حياتُه، لا يضرُّك موته).

● وقال أحد الشعراء:

ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يرى   عـدوًّا لـه مـا مِنْ صداقتـه بُـدُّ

● وقيل لعبد اللَّه بن المبارك: إن قومًا يلتقون بالبِشر والسلام، فإذا تفرقوا طعن بعضهم على بعض.

فقال: أعداءُ غيب، إخوة تلاقٍ، تبًّا لهذه الأخلاق، كأنما شُقَّت من النفاق.

● وقيل لأحدهم: مَن الصديق؟

قال: من شهد طرفهُ لك عن ضميره بالوفاء والود؛ فإن العين أنطقُ من اللسان، وأوقدُ من النيران.

---

(١) ينظر: الصداقة والصديق - لأبي حيان (ص ٣٩) وما بعدها.

ثلاثة احذر صحبتهم

قال علي ﷺ:

● لا تؤاخِ الفاجر؛ فإنه يُزيِّن لك فعله، ويحب لو أنك مثله، ويُزيِّن لك أسوأ خصاله، ومَدْخله عليك ومَخْرجه من عندك شَيْن وعار.

● ولا الأحمق؛ فإنه يجتهد بنفسه لك ولا ينفعك، وربما أراد أن ينفعك فيضرك، فسكوتُه خيرٌ من نطقه، وبُعْده خيرٌ من قُربه، وموته خيرٌ من حياته.

● ولا الكذاب، فإنه لا ينفعُك معه عيشٌ، ينقل حديثك وينقل الحديث إليك، حتى إنه ليحدِّث بالصدق فما يُصدَّق.

[عيون الأخبار لابن قتيبة: ٣/ ٩٠].

طعم الحياة مع الصديق الصالح

مَن لم يكن ذا صديقٍ ... يفضي إليه بسرِّهْ

ويستريح إليه ... في خير أمرٍ وشرِّه

فليس يعرف طعمًا ... لحلوِ عيشٍ ومُرِّه

[الصداقة والصديق: ص ٢٤٣].

ثلاثة تزيد السعادة

قال سفيان الثوري رحمه اللَّه:

(ما بقي لي من نعيم الدنيا إلَّا ثلاث:

- أخ ثقة في اللَّه، أكتسب في صحبته خيرًا، إن رآني زائغًا قوَّمني، أو مستقيمًا رغَّبني.
- ورزقٌ واسع حلال، ليست للَّه عليَّ فيه تَبِعة، ولا لمخلوق عليَّ فيه مِنَّة.
- وصلاة في جماعة أُكفى سهوها، وأُرزق أجرها).

[بهجة المجالس لابن عبد البر: ٢/ ١٢٩]

خير الأمور الوسط

قال أكثم بن صيفي: (الانقباض من الناس مَكسبة للعداوة، وإفراط الأُنس بالناس مكسبةٌ لقرناء السوء).

[المجالسة: ٣/ ٦١]

* * *

لعمركَ ما مالُ الفتى بذخيرةٍ
ولكنَّ إخوان الثقات الذخائر

* * *

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه
فكلُّ قرينٍ بالمقارن يقتدي
إذا كنت في قومٍ فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى، فتردى مع الردي

* * *

بيت في أعلى الجنة

الأمنية العظمى التي يطمح إليها كل مسلم أن يكرمه اللَّه سبحانه بدخول الجنة والنجاة من النار، وقد بيَّن الرسول ﷺ أن هذا التكريم له ثمن غال؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إن سلعة اللَّه غالية، ألا إن سلعة اللَّه الجنة**»[1].

فكيف بك إذا جاءتك البشارة بدخول الجنة والفوز بأعلى الدرجات فيها؟

إنها بشارة عظيمة يرقص لها القلب طربًا وفرحًا، فلمن تكون تلك البشارة؟!

تأمل معي هذا الحديث النبوي الذي رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال:

قال رسول اللَّـه ﷺ: «**أنا زعيم[2] ببيتٍ في رَبَضِ الجنة لمن ترك المِراء وإن كان مُحقًّا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلُقه**»[3].

● **فالبيت الأول في أطراف الجنة** جزاء المؤمن الذي يترك المِراء والجدال ولو كان يرى نفسه أنه على حق؛ لأن الحوار الهادئ والنقاش بأسلوب الحكمة يثمر الوصول إلى الحقيقة، ولكن المسألة إذا تطورت إلى جدال عقيم، وخصومة نكراء انقلبت إلى تمسك كلِّ ذي رأي برأيه، فلا بد من حسم الجدال حرصًا على تآلف القلوب، وأولى الناس بالبشارة النبوية المذكورة من يترك الجدال ابتغاء مرضاة

(١) جزء من حديث رواه الترمذي (رقم: ٢٤٥٠)، وقال: حديث حسن.

(٢) زعيم، أي: ضامنٌ، ورَبَض الجنة: أطرافها.

(٣) رواه أبو داود (رقم: ٤٨٠٠).

ربه سبحانه ولو كان على حق؛ لأن الطرف الآخر معاندٌ متمسك برأيه معجبٌ بنفسه، وهذه صفة الجهّال الذين أمرنا اللَّه سبحانه بالإعراض عنهم؛ فقال ﷻ: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

● **وأما البيت الآخر الذي ورد في البشارة النبوية فهو بيت في وسط الجنة**، وهو لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا؛ فالكذب آفة خطيرة من آفات اللسان، ومن تساهل في قليلِهِ تدرَّج إلى كبيره، وهذا ما أكَّده النبي ﷺ بقوله: « **إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند اللَّه صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند اللَّه كذَّابًا** »[1].

فإن أردت المزاح فلا تقل إلا حقًّا، واحذر من الكذب ولو ظَننتَ أن النجاة فيه، فإنَّ فيه الهلاك، ومن جاهد نفسه حتى فطمها عن اقتراف هذه الآفة استحق البشارة النبوية، وظفر ببيت في وسط الجنة.

● **وأمَّا البيت الثالث المذكور في البشارة فهو بيت في أعلى الجنة**، في الفردوس الأعلى، مع الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، وهو الجزاء الأوفى لأصحاب الأخلاق الفاضلة، الذين جاهدوا أنفسهم وحفظوا ألسنتهم عن كل فحش، حتى أضحى حُسن الخلق لديهم مَلَكةً وصفة دائمة يتحلَّون بها في جميع مجالات حياتهم: في البيت والعمل والسوق، والحضر والسفر، والمنشط والمكره.

إنهم أهلٌ لهذه البشارة العظيمة؛ لأن حسن الخلق ثقيل في ميزان الأعمال الصالحة، فقد روى الترمذي عن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ

---

(١) رواه البخاري (رقم: ٦٠٩٤)، ومسلم (رقم: ٢٦٠٧).

قال: « **ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حُسن الخلق، وإن اللَّه يبغض الفاحش البذيء** »[١]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: سُئل رسول اللَّه ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة، فقال: « **تقوى اللَّه وحسن الخلق** »[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا، وخياركم خياركم لنسائهم** »[٣]، وفي هذا إشارة إلى أن أول مجالات حُسن الخلق تكون مع الزوجة والأهل؛ فهي شريكة حياتك وأنيسةُ بيتك، وقد جعل اللَّـه بينكما مودة ورحمة، فإذا قابلتها بالسوء والقسوة والغلظة فأنت بعيدٌ عن الاتصاف بالخلق الحسن ولو تظاهرتَ به أمام الآخرين؛ لأن الأخلاق المصطنعة لا تجدي شيئًا، ولا تدل على طهارة النفس، ولا ينال بها صاحبها أي فضل؛ بل هي نوع من الغش والخداع، حينما يتظاهر الإنسان بحسن الخلق أمام زملائه وأصحابه ليكسب ودَّهم ومحبتهم ويحظى بما يرجوه منهم، فإذا عاد إلى بيته أو سافر أو تعامل مع غيره بالبيع والشراء أو الشراكة ونحوها ظهر على حقيقته، وكشَّر عن أنيابه، وكشف سوء طباعه، وظهرت نفسه المريضة التي تستهويها المصالح وتتحكم فيها الأهواء والأنانية والجشع، وما أكثر هؤلاء في عالمنا اليوم، وما أعظم المصاب بهم !!

فاحذر أخي المسلم من سوء الأخلاق، وجاهد نفسك للتحلي بالأخلاق الفاضلة؛ لتنال رضا الرحمن، وتظفر بأعلى الجنان، وتكسب محبة الناس وثقتهم واحترامهم.

---

(١) رواه الترمذي (رقم: ٢٠٠٣)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه الترمذي (رقم: ٢٠٠٥)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه الترمذي (رقم: ٢٦١٥)، وقال: حديث حسن صحيح.

من بدائع الحكم

- خير المقال ما صدَّقه الفعال.
- جانب مودة الحسود، وإن زعم أنه ودود.
- من أحبك نهاك ومن أبغضك أغراك.
- من قلَّ خيره على أهله فلا ترجُ خيره.

قال الشاعر أحمد شوقي:

صلاحُ أمرك للأخلاق مرجعُه
فقوِّم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس في خيرها في خير عاقبةٍ
والنفس في شرِّها في مرتع وخم

تطغى إذا مُكِّنتْ من لذة وهوًى
طغي الجياد إذا عضّت على اللجم

* * *

بمكارم الأخلاق كن متحليًا
واصدق وَجِدَّ ونافسِ الأبطالا

واللَّه فاعبد واستقم وتصدَّقنْ
وادعُ الشكور فلا يردُّ سؤالًا

مشروع التسامح

نشرت بعض الصحف مؤخرًا[١] خبرًا من جامعة (ليدز) شمال إنجلترا يذكر أن أستاذ علم النفس بالجامعة يقوم بتعليم البريطانيين التسامح، وقد سجَّل أكثر من سبعين شخصًا أسماءهم للالتحاق بالدورة التعليمية التي تستمر عشرين أسبوعًا، وتعتبر الأولى من نوعها في العالم كما يقولون، وقد صرّح الأستاذ (كين هارت) القائم على المشروع أن الكراهية التي نشعر بها داخلنا ورمٌ خبيث ، وأضاف أن كبت الغضب يؤدي إلى أمراض؛ مثل ارتفاع في ضغط الدم وأمراض قلبية، وقد أصبحت الكراهية والمرارة والرغبة في الثأر السبب الحقيقي وراء تأزمهم.

وهذه المحاضرات لا تهدف فقط إلى إزالة سلطان الكراهية من نفوس هؤلاء الناس، وإنما إلى تقديم الدليل على أن وصفة الطبيب (هارت) من أجل التسامح حلوة المذاق، وتبدأ هذه المحاضرات بإزالة الصورة السلبية عن التسامح من الأذهان؛ لأن التسامح فعلٌ من مَجنيٍّ عليه تجاه المسيء، وأساسه التحول من موقف سلبي إلى موقف إيجابي، وهناك كتيبات خاصة بهذا المشروع للتدريب على كيفية إبداء التسامح، وكيفية النظر إلى الغضب والضغائن وتأثيرها.

وقد أُنشئت مؤسسة خيرية لهذا الغرض لمساعدة الناس الذين يريدون التحرر من الماضي، لكي تتحسن حالتهم ويشعروا بالسعادة، وبيَّن (هارت) أن التسامح مهارة من الممكن تعلُّمها وتدريب الناس عليها إذا جرى صقل إمكاناتهم.

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط - بتاريخ (١٤٢١/٣/١٧هـ) .

وبعد أن قرأتَ هذا الخبر ورأيت هذه الجهود الكبيرة التي بُذلت لتسويق مشروع التسامح والترغيب فيه .. ألا تسأل نفسك !!

مَن هم أحق الناس بالتسامح ونبذ الخصومات فيما بينهم ؟!

إنهم المسلمون الذين دعاهم دينهم الحنيف إلى هذا الخُلق الفاضل وحثهم عليه، إنهم أصحاب مشروع التسامح الأصيل المنبعث من قرارة النفس ابتغاء مرضاة اللَّه سبحانه وليس لأي غرض دنيوي آخر.

ولقد حثنا ديننا على التسامح والصفح والصلح عند أي نزاع:

فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]

وقال ﷻ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]

وبيَّن المولى سبحانه صفات عباده المحسنين؛ فقال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

ودعا الرسول الأمين ﷺ إلى التسامح والمودة وصفاء القلوب:

وذلك فيما رواه البخاري ومسلم عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد اللَّه إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»** (١).

ولا شك أن هذه العداوات والأحقاد والضغائن منشؤها تعالي المؤمن على أخيه المؤمن وظلمه وإيذاؤه بفحش اللسان، فإذا سَلِم

---

(١) رواه البخاري (رقم ٦٠٦٥) ومسلم (رقم ٢٥٥٩)

المسلمون من هذه الآفات زالت البغضاء، وعمت المودة والمحبة، وهذا أعظم مشروع للتسامح؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: « **ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء** »[١].

وإذا وقعت من المسلم هفوة تجاه أخيه فليبادر إلى طلب السماح منه قبل أن يقف للحساب العسير يوم القيامة.

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **من كانت عنده مَظلمةٌ لأحد، مِن عِرضه أو من شيء، فليتحلّله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه** »[٢].

فمشروع التسامح الإسلامي لا يقتصر على دعوة المظلومين للصفح والعفو عمَّن ظلمهم، وإنما يحذِّر الظالمين من عذاب اللَّه يوم القيامة، ويدعوهم أن يبادر كلٌّ منهم لطلب السماح والتحلل من هذه المظلمة بكل الوسائل الممكنة، وإذا كانت الأموال سببًا لتأجج العداوات في الدنيا فإن العبد يوم القيامة لن تنفعه أمواله ليعيد الحقوق إلى أصحابها، وإنما هي الحسنات والسيئات حتى يصبح مفلسًا يُقذف به في النار والعياذ باللَّه.

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « أتدرون من المفلس؟ » قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: « **إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار** »[٣].

---

(١) رواه الترمذي(رقم: ١٩٧٨) وقال: حديث حسن.

(٢) رواه البخاري(رقم: ٢٣١٧).

(٣) رواه مسلم(رقم: ٢٥٨١).

وصايا بديعة

● من أحب تصفية الأحوال؛ فليجتهد في تصفية الأعمال.

● من سرَّه أن تدوم له العافية وراحة البال فليتقِ اللَّه ﷻ.

● متى رأيت تكديرًا في حالك؛ فاذكر نعمةً ما شُكرتْ، أو زَلّةً قد فُعلتْ، واحذر من نفار النعم، ومفاجأة النقم.

[صيد الخاطر: ص ٢٦]

الظالم والمظلوم

قال ابن المقفَّع:

(إنَّا لم نرَ ظالمًا أشبه بمظلومٍ من الحاسد، طول أسفٍ، ومحالفة كآبة، وشدة تحرُّقٍ، ويكدِّر على نفسه ما به من النعمة فلا يجد لها طعمًا، فهو مُنغَّص المعيشة، دائم السَّخطة، لا بما قُسم له يقنع، ولا على ما لم يُقسم له يَغلب، والمحسود يتقلَّب في فضل اللَّه مسرورًا).

[عيون الأخبار: ٢/ ١٢]

***

ضبط النفس عند الغضب

الغضب انفعال غريزي يؤدي وظيفة مهمة؛ حيث يساعد الإنسان على مواجهة الصعاب والتغلب على العقبات، ولكن أساليب التعبير عن الغضب تختلف من إنسان لآخر، وكثيرًا ما يؤدي الأمر إلى طغيان في هذا الانفعال وتجاوزه للحد حتى تتعطل قدرة المرء على التفكير السليم، وتصدر منه بعض الأفعال والأقوال التي قد يندم عليها بعد ذلك.

فإذا أردت النجاح في الحياة وكسب محبة الناس، فلتحذر من كثرة الغضب والانفعال، ولتضع نصب عينيك قول الشاعر:

لا يحمل الحقدَ مَن تعلو به الرُّتَبُ ... ولا ينالُ العُلا من طبعُهُ الغضبُ

وقد بيَّن العلماء الصلة بين الغضب المذموم، وشهوة حب النفس؛ فقال الإمام شهاب الدين البرنسي: (أصل الغضب رؤية النفس، ودواؤه النظر في مقبِّحاته فكرًا ونقلًا)[1].

ولذلك لا بد من المبادرة لمعالجة ثورة الغضب، وكظم الغيظ والبعد عن الانتقام للنفس حتى لا تزداد كِبرًا وعُجبًا.

وقد أثنى اللَّه سبحانه على عباده الذين يتحكمون بأنفسهم عند الغضب فقال تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] .

(١) النصيحة الكافية(ص ١٠٨) .

كما بيّن الرسول ﷺ أن قوة النفس ليست بالبطش، وإنما هي بالتحكم بها والأخذ بزمامها، وذلك ما رواه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** »(١).

ومما يدل على عظم مفسدة الغضب للنفس وما ينشأ عنه من تدمير لسعادة الإنسان، أن الرسول ﷺ حذّر منه مرارًا، وذلك في الوصية التي أوصى بها أحد صحابته رضي اللَّه عنهم ، فقد روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني؛ قال: «**لا تغضب** »، فردد مرارًا، قال: «**لا تغضب** »(٢).

ومعنى قوله ﷺ: «**لا تغضب** » أي: اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه، وأمّا نفسُ الغضب فلا يتأتى النهي عنه؛ لأنه أمر طبيعي في الجِبلَّة.

كما أوضح الإمام ابن حجر العسقلاني خطورة الغضب وتحريكه لكوامن الأمراض النفسية؛ فقال رحمه اللَّه: «إن أعظم ما ينشأ عنه الغضب الكبر، لكونه يقع عند مخالفة أمر يريده فيحمله الكبر على الغضب؛ فالذي يتواضع حتى تذهب عنه عزة النفس يسلم من شر الغضب).

ثم قال: (وأما في الباطن فقبحه أشد من الظاهر؛ لأنه يولِّد الحقد في القلب والحسد وإضمار السوء على اختلاف أنواعه.. وأمَّا أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل ويندم قائله عند سكون الغضب.. ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ: «**لا تغضب** » من الحكمة، واستجلاب المصلحة في درء المفسدة مما يتعذر إحصاؤه

---

(١) رواه البخاري (رقم: ٥٧٦٣) ومسلم (رقم: ٢٦٠٩) والصرعة: هو الذي يصرع الناس ويغلبهم.

(٢) رواه البخاري (رقم: ٥٧٦٥)

والوقوف على نهايته)(١).

علاج الغضب:

بين يديك – أخي القارئ – أدوية نافعة من الطب النبوي للتخفيف من الغضب وتهدئة ثورته:

١ – روى البخاري ومسلم عن سليمان بن صُرد قال:(استبَّ رجلان عند النبي ﷺ؛ فجعل أحدهما يغضب ويحمرُّ وجهه، فنظر إليه النبي ﷺ؛ فقال:« **إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم**»(٢).

٢ – وفي حديث آخر قال رسول اللَّه ﷺ:« **إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلق من النار، وإنما تُطفَأُ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**»(٣).

٣ – وعن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قال لنا رسول اللَّه ﷺ:« **إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس؛ فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**»(٤).

وذلك لأن الشخص إذا غضب وهو قائم كان متهيئًا للبطش والحركة، فإذا جلس ابتعد قليلًا عن هذه الحالة واسترخت أعضاؤه، فلا يبدر منه تصرف يندم عليه بعد ذلك، وقد لا ينفعه الندم.

---

(١) فتح الباري(١٠/ ٥٢٠).

(٢) رواه البخاري(رقم: ٥٧٦٤)، ومسلم(رقم: ٢٦١٠).

(٣) رواه أبو داود(رقم: ٤٧٤٨)، والإمام أحمد في المسند(٤/ ٢٢٦)، وحسّنه محقق جامع الأصول(٨/ ٤٣٩).

(٤) رواه أبو داود(رقم: ٤٧٨٢)، والإمام أحمد(٥/ ١٥٢)، وهو حديث حسن كما في جامع الأصول(٨/ ٤٤٠).

قال الإمام ابن القيم رحمه اللّٰه تعالى:

(أوثقْ غضبك بسلسلة الحِلم، فإنه كلبٌ إذا أفلت أتلف).

[الفوائد: ص ٥١]

قال الإمام ابن حبان البستي رحمه اللّٰه تعالى:

(الغضب بذر الندم، فالمرء على تركهِ قبل أن يغضب أقدرُ على إصلاح ما أفسد به بعد الغضب..

والواجب على العاقل إذا ورد عليه شيء بضد ما تهواه نفسه أن يذكر عصيانه ربَّه، وتواتر حلم اللّٰه عنه، فيسكن غضبه).

[روضة العقلاء: ص ١٣٩]

وكظمي الغيـظَ أولى من محاولتي
غـيظَ العــدو بإضراري بـإيماني

لا خير في الأمر تـُرديـني مـغـبَّـتهُ
يوم الحساب إذا ما نـصَّ مـيزاني

حريق الغضب

قال أحد الحكماء وهو يوصي ابنه:

(استعد لحريق الغضب بالأناة، قبل أن تلتهب ناره في لحمك ودمك؛ فإن إطفاءه قبل استثاره سريع، وإذا اشتعل قبَّح محاسنك).

[المجالسة وجواهر العلم: ٥ / ١٦٧]

اللسان ميزان

من أهم الأعضاء التي أنعم اللَّه بها على الإنسان ذلك اللسان الذي يعبِّر به وينطق ويتكلم، ويخاطب الناس، ولكن الكلام فيه خيرٌ وشر، ونفع وضرر، ولربَّ كلمة يتفوَّه بها الإنسان لا يهتم بآثارها؛ فتكون أشد فتكًا وخطرًا من الأسلحة المدمرة، والنيران المحرقة، ومن حفظ لسانه سعدت نفسه واطمأن قلبه، وفاز برضوان ربه ﷻ.

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللَّه تعالى لا يلقي لها بالًا يرفعه اللَّه بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللَّه تعالى لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم** » [1].

وفي رواية: « **يَزِلُّ بها في النار أبعدَ مما بين المشرق والمغرب** » [2].

قال الإمام ابن القيم رحمه اللَّه:

(أهل الصراط المستقيم كفُّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلًا أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسناتٍ أمثالِ الجبال؛ فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال؛ فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر اللَّه وما اتصل به) [3].

---

(١) رواه البخاري(رقم: ٦١١٣) .

(٢) رواه البخاري(رقم: ٦١١٢) ، ومسلم(رقم: ٢٩٨٨) .

(٣) الجواب الكافي(ص ٢٠٨) .

وقال الإمام النووي رحمه اللَّه:

(اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلَّا كلامًا ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركُه في المصلحة فالسُّنة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجرُّ الكلام المباح إلى حرامٍ أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامةُ لا يعدلها شيء)[١].

ومصداق ذلك ما رواه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت** »[٢].

فمَن أراد سلوك طريق السعادة والفلاح فليحفظ لسانه، ومَن أراد النجاح في الحياة فليكن لسانُه ميزانًا، وليُحسن الكلام الطيب، وقد يجد المشقة بادئ ذي بدء في ضبط لسانه، ولكنه مع المجاهدة واليقظة والخوف من الزلل يحظى بها يرجوه، وقد قال الشاعر:

عَوِّد لسانك قولَ الخيرِ تحْظَ به ... إنَّ اللسانَ لِما عَوَّدتَ مُعتادُ

***

(١) رياض الصالحين (ص ٣٩٣).

(٢) رواه البخاري (رقم: ٦٤٧٥)، ومسلم (رقم: ٤٧).

تعاهد لسانك

تعاهد لسانك إن اللسان
سريعٌ إلى المرء في قتله
وهذا اللسان بريدُ الفؤاد
يدلُّ الرجالَ على عقله

اللسان قاتل

قال أكثم بن صيفي:

(مقتل الرجل بين فكّيه – يعني: لسانه – فإياك أن يضرب لسانُك عنقَك).

[المجالسة: ٣ / ٢٣٤].

يُصاب الفتى من عَثرةٍ بلسانه
وليس يصابُ المرء مِنْ عَثرةِ الرِّجل
فعثرتُه مِن فيهِ ترمي برأسه
وعثرتُه بالرِّجل تبرًا على مَهلِ

جِرم صغير

إنَّ اللسان صغيرٌ جِرمُه وله
جُرمٌ عظيم كما قد قيل في المثل
فكم ندمتَ على ما كنتَ قلتَ به
وما ندمتَ على ما لم تكن تَقُلِ
وقيمةُ المرء فيما كان يُحسنُه
فاطلب لنفسك ما تعلو به وَسَلِ

[للإمام ابن المقري العذري ت٨٣٧هـ].

اللسان لا يُعار

أوصى أحد الحكماء بنيه فقال لهم:

(أصلحوا ألسنتكم، فإن الرجل تنوبُه النائبة فيستعير من أخيه ثوبه، ومن صديقه دابته، ولا يجد مَن يعيره لسانه).

[لباب الآداب: ص٢٠].

الوقت هو الحياة

الوقت أغلى من الذهب؛ لأنه هو الحياة، والشاب المسلم لا يليق به أن يضيع أوقاته في اللهو والعبث؛ لأن الأوقات التي تذهب لا تعود، ومن غفل عن أوقاته طالت حسراته، كما يتحسر المريض على أيام صحته ونشاطه.

وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»(١).

فالمسلم الذي تجتمع عليه نعمتان؛ وهما الصحة في البدن والفراغ في الوقت، ينبغي له أن يؤدي حقهما من الشكر للَّه سبحانه بالاستفادة منهما في طاعته ونيل مرضاته؛ فإذا فرَّط في هذا فهو المغبون الخاسر؛ لأن الصحة يعقبها السقم، والفراغ يعقبه الشغل، وكما أنَّ التاجر يطلب الربح في عمله ولا يرضى الغبن والخسارة فكذلك المسلم رأس ماله صحته وفراغه، لا يفرِّط بأي شيء منهما في غير طاعة اللَّه التي هي التجارة الرابحة.

وقد قال بعض السلف: (إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علمًا يقربني من اللَّه فلا بورك لي في شمس ذلك اليوم).

فلا تظنن أخي الشاب أن الإجازة تعني اللهو، وضياع الأوقات، وهدر الساعات؛ وإنما هي انتقال من مرحلة السنة الدراسية إلى

---

(١) رواه البخاري في الرقاق، باب الصحة والفراغ، (رقم: ٦٠٤٩).

مرحلة النشاط الهادف بما يمتِّع النفس ويمنحها مزيدًا من الفائدة، وبما يقوي صلتك بربك سبحانه، ويغذي روحك، وهذا هو طريق السعادة والنجاح في الحياة.

ولهذا أوصي إخواني الشباب بالإقبال على المراكز الصيفية، وحلقات تحفيظ القرآن الكريم في المساجد، وتنظيم أوقاتهم بإشراف الآباء والمربين، وشتان بين من يقضي إجازته في النوم والكسل واللهو، ومن يقضيها في العمل المثمر، والنشاط الهادف البنَّاء، وتنمية المواهب والطاقات، والهوايات، والقدرات بما يُصلح الفرد والمجتمع.

وأنتُنَّ أيتها الفتيات بادرنَ إلى اغتنام الأوقات؛ فالعمر محدود ووقت الشباب لا يعود، وستكبر الفتاة وتتزوج وتصبح أُمًّا مسؤولة عن أسرة، فلا تجد الوقت الكافي لتنمية مواهبها، والاستزادة من العلم النافع، وكم من فتاة ندمت بعد زواجها على ما ضاع من أوقات صباها، وهي ترى زميلاتها الأُخريات قد بادرن إلى حفظ القرآن الكريم، والتزود من العلوم والمعارف والثقافة.

وليضع الشباب والشابات نصب أعينهم حديث رسول اللَّه ﷺ: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابَك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شُغلك، وحياتَك قبل موتك**»[1].

يقول الإمام ابن القيم رحمه اللَّه تعالى:

(العارف ابن وقته؛ فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، وإن ضيَّعه لم يستدركه أبدًا.. ووقت الإنسان هو عمره في الحقيقة.. وهو يمرُّ أسرع من السحاب)[2].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٠٦) وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٢) الجواب الكافي (ص ٢٠١).

ومن الآفات التي يقع فيها كثير من المسلمين أنه إذا لمسَ من نفسه نشاطًا يؤهله لأعمالٍ نافعة جاءه الشيطان يسوِّف له، ويذكره بمشاغل أخرى ليضيِّع وقته.

ولهذا قال الحسن البصري رحمه اللَّه: (إياكَ والتسويف، فإنك بيومك ولستَ بغدك؛ فإن يكن غدٌ لك فكنت في غدٍ كما كنتَ في اليوم، وإن لم يكن لك غدٌ لم تندم على ما فرَّطت في اليوم)[1].

وما أحسن قول الشاعر:

والوقتُ أنفسُ ما عُنيتَ بحفظه ... وأراهُ أسهلَ ما عليك يضيع

فهل يُبادر شبابنا إلى اغتنام أوقاتهم أم يُشغلهم الشيطان، ويدعوهم لقتل الأوقات في اللهو والمعاصي والغفلات ؟!

إنها دعوة لشباب الأمة لسلوك الطريق الموصل للقمة .. فهل من مستجيب ؟!

***

(١) اقتضاء العلم العمل (ص ١١٣)

الأشياء الضائعة

قال الإمام ابن القيم رحمه اللَّه تعالى:

(عشرة أشياء ضائعة لا يُنتفع بها:

١ - علم لا يُعمل به.

٢ - وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء.

٣ - ومالٌ لا يُنفق منه، فلا يستمتع به جامعه في الدنيا، ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة.

٤ - وقلب فارغ من محبة اللَّه والشوق إليه، والأُنس به.

٥ - وبدن معطَّل من طاعته وخدمته.

٦ - ومحبة لا تتقيَّد برضاء المحبوب وامتثال أوامره.

٧ - ووقت معطَّل عن استدراك فارطٍ أو اغتنام برٍّ وقُربةٍ.

٨ - وفكرٌ يجول فيما لا ينفع.

٩ - وخدمةُ مَن لا تقرِّبك خدمتُه إلى اللَّه، ولا تعود عليك بصلاح دنياك.

١٠ - وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد اللَّه، وهو أسيرٌ في قبضته، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان، هما أصل كل إضاعة:

● **إضاعة القلب.** ● **وإضاعة الوقت.**

فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الفساد.

فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى وطول الأمل، والصلاح كله في اتباع الهدى والاستعداد للقاء اللَّه).

[الفوائد: ص ١١١]

الربح والخسران

● قال الإمام أبو الفتح البستي رحمه الله:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته
أتطلب الربح فيما فيه خسران؟
أقبل على النفس واستكمل فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
دع التكاسل في الخيرات تطلبها
فليس يسعد بالخيرات كسلانُ

دواء ناجح

● قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله:

(ما دامت الدنيا لا تخلو من أكدار؛ فالدواء الناجح أن يشتغل الإنسان بعمل نافع يملأ عليه وقته، ويبعد عنه دوام التفكير في هذه الأكدار، وينبغي أن يكون هذا العمل مما تأنس إليه النفس وتشتاقه).

[الوسائل المفيدة للحياة السعيدة: ص ١٥]

آفات التأخير

بادرْ إذا حاجةٌ في وقتها عرضتْ
فَلِلحوائج أوقاتٌ وساعاتُ
إنْ أمكنتْ فرصةٌ فانهض لها عَجَلًا
ولا تؤخرْ فَلِلتأخير آفاتُ

عقلك سلاحك

العاقل تنحصر أفكاره، وخطراته، وهمومه فيما يستجلب به مصالح دنياه وآخرته، وإذا تزاحمت عليه الأفكار قدَّم الأهم، فالأهم الذي يخشى فوته، وأعلى مراتب الفكر وأجلُّها وأنفعها ما كان للَّه والدار الآخرة.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه اللَّه مجالات التفكير التي ينبغي للعبد أن يحرص عليها؛ وهي:

١ - التفكير في آيات اللَّه المنزلة وفهم معناها، فاللَّه سبحانه لم ينزل آياته لمجرد تلاوتها وإنما ليُعمل بها.

٢ - التفكير في آياته المشهودة في الكون والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته وإحسانه سبحانه وتعالى.

٣ - التفكير في آلائه ونعمه على خلقه، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

٤ - التفكير في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذا التفكير عظيم النفع، وهو بابٌ لكل خير، وطريقٌ لكسر النفس الأمارة بالسوء، وإحياء النفس المطمئنة.

٥ - التفكير في واجب الوقت ووظيفته؛ فالعارف ابن وقته، فإنْ أضاعه ضاعت عليه مصالحهُ كلُّها.

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر، فإمَّا وساوس شيطانية، وإمَّا أماني باطلة وخداع كاذب.

ثم قال رحمه اللَّه: (وقد ركَّب اللَّه سبحانه في الإنسان نفسين: نفسًا أمارة، ونفسًا مطمئنة، وهما متعاديتان، فكل ما خفَّ على هذه ثقُل على هذه،

وكل ما التذَّت به هذه تألمت منه الأخرى، فليس على النفس الأمارة أشقُّ من العمل للَّه، وإيثار رضاه على هواها، وليس لها أنفع منه.. وإذا لم يفرَّغ القلب من الخواطر الرديَّة لم تستقر فيه الخواطر النافعة ›[1].

رجاحة العقل نعمة كبيرة

قال الشاعر إبراهيم بن حسان[2]:

يَزِينُ الفتى في الناس صحةُ عقله ... وإنْ كان محظورًا عليه مكاسبُهُ
يشينُ الفتى في الناس قلَّة عقله ... وإن كَرُمتْ أعراقه ومناسبُهُ
يعيش الفتى بالعقل في الناس إنه ... على العقل يجري علمُه وتجاربه
وأفضل قَسْم اللَّه للمرء عقلُه ... فليس من الأشياء شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقلَه ... فقد كَمُلت أخلاقه ومآربه

***

(١) الجواب الكافي (ص ٢٠٠)

(٢) أدب الدنيا والدين (ص ٢٠)

الديك المزعج

استهلَّ فضيلة الشيخ علي الطنطاوي - رحمه اللَّه - إحدى مقالاته في الحديث عن السعادة بقصة طريفة مليئة بالعبر؛ وهي قصة الفيلسوف الألماني (كانت) الذي كان كثير الانزعاج من صوت ديك جاره، وكان هذا الديك يصيح ويقطع على هذا الفيلسوف أفكاره، فلما ضاق به بعث خادمه ليشتريه ويذبحه ويطعمه من لحمه، ودعا إلى ذلك صديقًا له، وقعدا ينتظران الغداء، ويحدِّثه عن هذا الديك، وما كان يلقى منه من إزعاج، وما وجد بعده من لذةٍ وراحة حتى أصبح يفكر في أمان ويشتغل في هدوء، فلم يقلقه صوته، ولم يزعجه صياحه.

ودخل الخادم بالطعام، وقال معتذرًا: إن الجار أبى أن يبيع ديكه؛ فاشترى غيره من السوق، فانتبه (كانت) فإذا الديك لا يزال يصيح!!

ويعلّق فضيلة الشيخ الطنطاوي على هذه القصة قائلًا:

(فكّرتُ في هذا الفيلسوف فرأيته قد شقي بهذا الديك؛ لأنه كان يصيح، وسعد به وهو لا يزال يصيح، ما تبدَّل الواقع، ما تبدَّل إلا نفسه، فنفسه؛ هي التي أشقته لا الديك، ونفسه هي التي أسعدته، وقلت: **ما دامت السعادة في أيدينا فلماذا نطلبها من غيرنا؟ وما دامت قريبة منا فلماذا نبعدها عنا؟**

إننا نريد أن نذبح الديك لنستريح من صوته، ولو ذبحناه لوجدنا في مكانه مائة ديك؛ لأن الأرض مملوءة بالديكة.

فلماذا لا نرفع الديكة من رؤوسنا إذا لم يمكن أن نرفعها من الأرض؟

لماذا لا نسدُّ آذاننا عنها إذا لم نقدر أن نسد أفواهها عنا؟

لماذا لا تصرف حسَّك عن كل مكروه؟

لماذا لا نقوِّي نفوسنا حتى نتخذ منها سورًا دون الآلام؟

كلٌّ يبكي ماضيه ويحنُّ إليه، فلماذا لا نفكر في الحاضر قبل أن يصبح ماضيًا؟!)[1].

إني لأُكرم نفسي أن أُدنِّسها ... بشَيْنِ عِرضي وبذل الوجه للناس

واللَّهُ ضامن رزقي ما حييتُ، وما ... في ضَمْنِ ذي العرش مِن شكٍّ ولا باس

إني رأيت سؤالَ اللَّه مَكرمةً ... وفي سؤال سواه أعظم الياس

[المحاسن والمساوئ للبيهقي: ص ٣٢٧].

***

(١) صور وخواطر(ص ١٣).

السعي في طلب الرزق

قصة طريفة تُظهر بجلاء الأسلوب التربوي الأمثل، والمنهج الحكيم الذي كان النبي ﷺ يتبعه في توجيه أصحابه الكرام، وتربيتهم على السلوك القويم، وحثهم على العمل المنتج والبذل والعطاء، والسعي لطلب الرزق، وترك الكسل والخمول، والتحذير من التسول واستجداء الناس، **وإليك تفصيل القصة:**

عن أنس ﷺ أن رجلًا من الأنصار أتى النبيَّ ﷺ فسأله(١)؛ فقال له النبي ﷺ: «**أما في بيتك شيء؟**» قال: بلى، حِلسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعبٌ(٢) نشرب فيه من الماء، قال: «**ائتني بهما**»، فأتاه بهما، فأخذهما رسول اللَّه ﷺ بيده، وقال: «**من يشتري هذين؟**» قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال ﷺ: «**مَن يزيد على درهم - مرتين أو ثلاثًا -؟**».

قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، فأخذ الدرهمين؛ فأعطاهما الأنصاري، وقال: «**اشترِ بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك**(٣)، **واشترِ بالآخر قَدُومًا**(٤)، **فائتني به**»، فأتاه به فشدَّ فيه رسول اللَّه عودًا بيده، ثم قال: «**اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينَّك خمسة عشر يومًا**»، ففعل، فجاء وقد أصاب - أي: ربح - عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا، وببعضها طعامًا. فقال له رسول اللَّه ﷺ: «**هذا خيرٌ لك من**

---

(١) أي: سأله مالًا.
(٢) القعب: إناء من فخار.
(٣) أي: قدِّمه لأولادك.
(٤) القدوم: آلة نجارة.

أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة »[١].

فانظر كيف وجَّه الرسول ﷺ هذا الأنصاري إلى الاعتماد على النفس وعلو الهمة، والسعي لطلب الرزق بكدِّه، وتحمل المشاق من أجل ذلك، وقد أرشده أولًا إلى بيع ما لديه ولو كان شيئًا زهيدًا، ثم أرشده إلى شراء آلة العمل، وهي القدُوم، وقام النبي ﷺ بشدِّ العصا على القدوم بيده الشريفة، ثم أرشده إلى شراء طعام لأهله بالدرهم الثاني، وبعد أن تم تأمين حاجة أهله الضرورية من الطعام انطلق هذا الصحابي يحتطب ويسعى في طلب الرزق، ولا يمكن خلال ساعات أو أيام قلائل، وإنما لا بد من الصبر والتحمل؛ ولذلك أرشده قائلاً: « لا أرينك خمسة عشر يومًا » لكي تكون النتيجة متحققة والربح وافرًا، وهكذا أصبح الرجل يملك عشرة دراهم تكفي حاجته بعد أن كان مُعدمًا، وتعلَّم أن يكسب من عمل يده؛ بل تعلم ما هو أهم من هذه الصنعة؛ **حيث تعلّم الصبر والحكمة وقوة العزيمة وشرف النفس، وتخلَّص من ذل السؤال والتسول.**

إنه المنهج النبوي الحكيم الذي ربَّى به النبي ﷺ أصحابه، فأصبحوا هداةً مهتدين، وتذوقوا حلاوة الإيمان والحياة الطيبة المباركة، وسارعوا إلى طلبِ رضوان اللَّه سبحانه، وجعلوا الدنيا مزرعة للآخرة؛ فظفروا بسعادة الدارين.

● وقد سئل النبي ﷺ أيُّ الكسب أفضل؟

فقال: « **عمل الرجل بيده، وكل كسب مبرور** »[٢].

---

(١) رواه أبو داود (رقم: ١٦٤١)، وابن ماجه (رقم: ٢١٩٨)، ورواه الترمذي مختصرًا (رقم: ١٢١٨) وقال: حديث حسن.

(٢) رواه الحاكم وصححه، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورواته ثقات كما قال المنذري في الترغيب والترهيب (٢ / ٥٢٣).

● وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكفَّ اللَّه بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناسَ أعطوه أو منعوه** »[1].

● وعن كعب بن عُجرة ﷺ قال: مرَّ على النبي ﷺ رجلٌ، فرأى أصحاب رسول اللَّه من جَلَده ونشاطه؛ فقالوا: يا رسول اللَّـه لو كان هذا في سبيل اللَّه، فقال: « **إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل اللَّه، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل اللَّه، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها فهو في سبيل اللَّه، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان** »[2].

فأين نحن من هذا التوجيه النبوي المحكم والتشريع الرباني العظيم.

احذروا التواكل

● **قال أبو العباس الآجري:**

(سألت أحمد بن حنبل - رحمه اللَّه - عن رجل جلس في بيته وقال: لا أعمل ولا أسأل حتى يأتيني رزقي في بيتي؛ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، قال اللَّه ﷻ: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال النبي ﷺ: « **جعل اللَّه رزقي تحت ظل رمحي** »، وكان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يتَّجرون في البر والبحر، والقدوة بهم).

[المجالسة : ٧/ ٧٦].

---

(١) رواه البخاري (رقم: ١٤٠٢)، ومسلم (رقم: ١٠٤٢).

(٢) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، كما قال المنذري في الترغيب والترهيب (٢ / ٥٢٤).

حقيقة التوكل

● عن معاوية بن قُرَّة - رحمه اللَّه - أن عمر بن الخطاب ﷺ لقي ناسًا من أهل اليمن؛ فقال:(من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: أنتم المتواكلون، إنما المتوكل الذي يُلقي حَبَّهُ في الأرض ويتوكل على اللَّه ﷻ) . [المجالسة وجواهر العلم: ٧ / ١٣٣]

ذلُّ السؤال

● قال الإمام الماوردي رحمه اللَّه:

(النفس الشريفة تطلب الصيانة وترعى النزاهة، وتحتمل من الضر ما احتملت، ومن الشدة ما أطاقت. وأما مَن يسأل مِن غير ضرورة مسَّت، ولا حاجة دعت؛ فذلك صريح اللؤم، ومحض الدناءة، وقلَّما تجد مثله محظوظًا؛ لأن الحرمان قاده إلى أضيق الأرزاق، واللؤم ساقه إلى أخبث المطاعم، فلم يبقَ لوجهه ماءٌ إلَّا أراقه، ولا ذلٌّ إلَّا ذاقه) . [أدب الدنيا والدين : ص ١٩٣]

الشكوى من الفقر

● قال النابغة:

إذا المرء لم يطلب معاشًا لنفسه ... شكا الفقر أو لامَ الصديق فأكثرا

وما طالبُ الحاجات في كل وجهةٍ ... من الناس، إلا مَن أجدَّ وشمَّرا

ولا ترضَ من عيشٍ بدونٍ، ولا تنم ... وكيف ينام الليلَ مَن كان مُعسِرا

[لباب الآداب : ص ٢٧]

إدخال السرور على قلب المؤمن

هل جرَّبت يومًا أن تمدَّ يد العون لأخيك المسلم أو تُغيث ملهوفًا أو تخفِّف عن مكروب، وتدخل السرور إلى قلبه؟!

إن لهذه الأعمال الجليلة متعة، ولذة يجدها العبد في الدنيا، فضلًا عن الأجر العظيم يوم القيامة، وإليك بعض الإرشادات النبوية في هذا المجال:

- عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: « على كل مسلم صدقة »، قال: أرأيت إن لم يجد؟ قال: « يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق ». قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: « يعين ذا الحاجة الملهوف »[١].

- وعن ابن عمر رضي اللَّه عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمه، مَن كان في حاجة أخيه كان اللَّه في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كُربةً فرَّج اللَّه عنه بها كُربةً من كُرَب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره اللَّه يوم القيامة »[٢].

- وفي حديث آخر أنَّ الرسول ﷺ قال: « مِنْ أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن: تقضي عنه دينًا، تقضي له حاجةً، تُنفِّس له كربة »[٣].

---

(١) رواه البخاري (رقم: ١٤٤٥)، ومسلم (رقم: ١٠٠٨).

(٢) رواه البخاري (رقم: ٢٤٤٢)، ومسلم (رقم: ٢٥٨٠).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢ / ٤٥٢)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (رقم: ٢٢٩١).

● وعن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « من لقي أخاه المسلم بما يحبُّ ليَسُرَّه بذلك سَرَّهُ اللَّه ﷻ يوم القيامة »[١].

● وعن عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما قال: جاء الرجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه أيُّ الناس أحبُّ إلى اللَّه تعالى؟ وأيُّ الأعمال أحب إلى اللَّه تعالى؟

فقال ﷺ: « أحب الناس إلى اللَّه تعالى أنفعهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى اللَّه تعالى سرورٌ تُدخله على مسلم، تكشف عنه كُربة، أو تقضي عنه دَينًا، أو تطرد عنه جوعًا؛ ولأن أمشي في حاجة أخٍ لي أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهرًا. ومن مشى في حاجة أخيه حتى يثبِّتها له ثبَّت اللَّه قدميه يوم تزِلُّ الأقدام »[٢].

● وقال علي بن أبي طالب ﷺ: (المعروف أفضل الكنوز، وأحصن الحصون، ولا يُزهدنك فيه كُفْرُ مَن كَفَرك، فقد يشكرك عليه مَن لم يستمتع منه بشيء)[٣].

***

---

(١) رواه الطبراني بإسناد حسن، الترغيب والترهيب (٣ / ٣٩٤).

(٢) رواه الأصبهاني وابن أبي الدنيا، كما في الترغيب والترهيب للمنذري (٣ / ٣٩٥)، ورواه الطبراني في الكبير (٣ / ٢٠٩)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (رقم: ٩٠٦).

(٣) لباب الآداب - للأمير أسامة بن منقذ (ص ٣٣٥).

حوائج الناس نعمة

● قال حكيم بن حزام:

(ما أصبحت يومًا وببابي طالبُ حاجة إلَّا علمت أنها من مِنَنِ اللَّه ﷻ عليَّ، ولا أصبحتُ وليس ببابي طالبُ حاجةٍ إلا علمتُ أنها من المصائب).

● وقال الفضيل بن عياض:

(إن حوائج الناس إليكم نعمةٌ من اللَّه عليكم، فاحذروا أن تَمَلُّوا النِّعم؛ فتتحوَّل. ألا تحمدُ ربك أنْ جعلكَ موضعًا تُسأل، ولم يجعلك موضعًا تَسأل ؟!).

[لباب الآداب: ص ٣١٧]

حِكَم ونفائس

● من اغترَّ بحاله قصَّر في احتياله، ومن اغترَّ بمسالمةِ الزمن عثر بمصادمة المحن.

● من أعجبتهُ آراؤه غلبته أعداؤه، ومن ساء تدبيره كذَّب تقديرُه، ومن جهل مواطئ قدمه، عَثَر بدواعي ندمه.

● أغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرًا، وأجلُّ الأمراء مَن لم يكن الهوى عليه أميرًا.

● من أحبَّ نفسه اجتنب الآثام، ومن أحبَّ ولده رَحِم الأيتام.

[لباب الآداب: ص ٦٠]

* * *

الابتسامة أقرب طريق إلى القلوب

الناس صنفان: صنفٌ عابس الوجه في معظم أحيانه، يظن أنه لا يكتسب احترام الآخرين إلَّا بالتعالي عليهم، والتقطيب في وجوههم، والصرامة عند التعامل معهم.

وصنف آخر يُسعد نفسه ومن حوله بالابتسامة، وطلاقة الوجه، والبِشر والقول الحسن .. **فأيُّ الصنفين أنت منهم؟!**

إذا أردت أن تحظى براحة النفس ومحبة الآخرين فأقرب طريق لك هو الابتسامة.

أجل.. هذا هو المنهج الذي حضَّ عليه النبي ﷺ، ورغَّب فيه، وهذا هو طريق السعادة والنجاح في الحياة.

● روى مسلم عن أبي ذر ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: « **لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ** »[١]؛ أي: منبسط الوجه ببشاشة ولطف.

● وروى الترمذي عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **تبسمك في وجه أخيك صدقة** »[٢].

أجل.. إنها صدقة معنوية، أثرها أعظم من كثيرٍ من الصدقات المالية؛ فهي صدقة منك على نفسك لتحيا مطمئنة بالبِشر والسرور، غير منقبضةٍ ولا مضطربة ولا متوترة، كما هو شأن عابسي الوجوه.

---

(١) رواه مسلم (رقم: ٢٦٢٦)

(٢) رواه الترمذي (رقم: ١٩٥٦)، وقال: حديث حسن.

وصدقةٌ على إخوانك الذين هم بأمسِّ الحاجة إلى ابتسامتك؛ لتكون عونًا لهم على أعباء الحياة، وعربونَ محبةٍ ووفاء، ودليلَ صفاءِ النفوس من الشحناء، ومظهرًا جميلًا لتآخي المسلمين، وتوادِّهم، وتراحمهم.

إنها صدقة تطهر النفس وتزكيها، مثلها مثل صدقة المال التي قال في شأنها المولى سبحانه: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والعاجز هو الذي لا يبادر إلى هذه الصدقة السهلة الميسورة، التي هي في مقدور الجميع: فقيرهم وغنيِّهم، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم.

إنك مهما حاولت أن تبسط يدك بالكرم والجود والإحسان، فلن يكتفي الناس وسيطلبون المزيد، ولكنك إذا بسطتَ وجهك أرضيْتَ القلوب وأفرحتَ النفوس.

ولهذا قال النبي ﷺ: « **إنكم لن تَسَعوا الناس بأموالكم، فليسعهم منكم بسطُ الوجه وحسن الخُلق** »(١).

إنها الابتسامة التي تصنع الأعاجيب، وتنتزع الأحقاد، وتستلُّ الضغائن، وتنشرح لها الصدور، وتجعل من مرارةِ أتعاب الحياة حلاوةً وعِطرًا.

ولنتأمل حياة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام؛ فهي خير قدوة وأسوة لنا:

● عن عبد اللَّه بن الحارث ﷺ قال: (ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول اللَّه ﷺ)(٢).

---

(١) رواه الحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان، والطبراني، ورمز السيوطي لحسنه، فيض القدير شرح الجامع الصغير (٢/ ٥٥٧) (رقم: ٢٥٤٥).

(٢) رواه الترمذي(رقم: ٣٦٤٥)، والإمام أحمد في المسند(٤/ ١٩٠).

● وعن جرير بن عبد اللَّه ﷺ قال: (ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلَّا تبسم في وجهي)[١].

● وعن سماك بن حرب قال: قلتُ لجابر بن سَمُرة: أكنتَ تجالس رسول اللَّه ﷺ ؟ قال: (نعم، كثيرًا، كان لا يقوم من مُصلَّاهُ الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون، ويتبسم ﷺ)[٢].

ولم يكن هذا التبسم لِيُنقص من مكانته ﷺ، وإنما هو اللطف الذي ما خالط شيئًا إلا زانَهُ، ولا نُزع من شيء إلا شانَهُ.

وصدق المولى العظيم القائل لنبيّه ﷺ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فلتكن مبتسمًا مستبشرًا لتنال السعادة، وتُسعد مُحِبِّيك من أهلك وإخوانك، وأصحابك وجيرانك، ولتحذر من العبوس وتقطيب الوجه، والمزاج الحاد الذي يزرع البغضاء وسوء الظنون، ويقدح الشرر من العيون.

إن الوجه الجميل يصبح قبيح المنظر بالعبوس والنظرات الحادة، والوجه الدميم يراه الناس حسنًا بالابتسامة والبشاشة.

وما أحسن قول الشاعر يصف الوجه المشرق بالبسمة:

وإذا نظرتَ إلى أسرَّةِ وجهه ... برقتْ كبرقِ العارضِ المتهللِ

وهذا هو المعنى المقصود من قول الرسول ﷺ: « التمسوا الخير عند حِسانِ الوجوه »[٣]، وفي رواية: « فإذا قضى حاجتك قضاها بوجهٍ

(١) رواه البخاري(رقم: ٥٧٣٩)، ومسلم(رقم: ١٥٩). (٢) رواه مسلم(رقم: ٢٣٢٢).

(٣) رواه الطبراني وأبو يعلى، ورواه تمام في فوائده بإسناد جيد عن ابن عباس كما قال الإمام العجلوني، كشف الخفاء(١/ ١٧٦).

طلق، وإن ردَّك ردَّك بوجهٍ طلق، فرُبَّ حسنِ الوجه دميمهِ عند طلب الحاجة، ورُبَّ دميم الوجه حَسَنَـهُ عند طلب الحاجة »[1].

فاحرص على الابتسامة الصادقة الصافية التي تعكس ما في القلب من محبة وشفقة؛ ولتحذر من الابتسامة المصطنعة التي تخفي وراءها الأحقاد والمكر، وتُتخذ طريقًا للتحايل على الآخرين، والتي وصفها الشاعر بقوله:

إذا رأيتَ نيوب الليثِ بارزةً ... فلا تظنَّنَّ أن الليث يبتسم

ولا شك أن هذه الابتسامة الصفراء لن يطول خداعها، ولن تصل إلى القلوب؛ لأنها لم تخرج من القلب، وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضح.

***

(١) كشف الخفاء (١/ ١٧٦).

السعادة بالزوجة الصالحة

دعا الإسلام إلى الزواج، ورغَّب فيه؛ فقال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٢].

كما وصف الرسل - عليهم السلام - وما امتن به عليهم؛ فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ ﴾ [الرعد: ٣٨].

وامتدح عباده الصالحين بحرصهم، وطلبهم للأزواج والذرية التي تقربهم إلى ربهم، وتكون سكنًا لنفوسهم؛ فقال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

ولذلك حض الرسول ﷺ الشباب على الزواج، وبيَّن أثره في تحصين النفس، في أحاديث كثيرة؛ منها:

● ما رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء** »(١).

ففي هذا الحديث النبوي بيان واضح لأهمية الزواج في تزكية النفس، ووقايتها من الانحراف، وتوجيه الشهوة في طريقها الشرعي

---

(١) رواه البخاري؛ (رقم: ١٨٠٦، ٤٧٧٨، ٤٧٧٩)، ومسلم (رقم: ١٤٠٠).

المأمون، الذي يرقى بالفرد والمجتمع ويحقق صلاحهما.

● وعن أنس ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتَّقِ اللَّه في النصف الباقي »[١].

وفي رواية: « من رزقه اللَّه امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق اللَّه في الشطر الباقي »[٢].

والمتأمل لهذا الحديث يدرك الصلة الوثيقة بين الزواج وتزكية النفس، وبلوغها طريق السعادة والنجاح في هذه الحياة.

فالزواج في الإسلام يهدف إلى تحقيق شطر الدين في حياة الزوجين لما يؤدي من تحصين النفس عن الرذائل، وما على الزوجين إلَّا أن يلتزما تقوى اللَّه سبحانه بالتحلي بالفضائل، وهو الشطر الثاني من الدين.

وقد كان السلف الصالح - رحمهم اللَّه - يحثون على الزواج؛ لأنهم يدركون أثره الكبير في تحصين النفس وتزكيتها.

روى البخاري عن سعيد بن جبير - رحمه اللَّه - قال: (قال لي ابن عباس: هل تزوجت ؟ قلت: لا. قال: فتزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساءً)[٣].

فابن عباس ﷺ يُسدي هذه النصيحة لتلميذه التابعي سعيد بن جبير، وكان سعيد في بداية شبابه لم تنبت لحيته بعد.

وينبغي أن لا يقتصر الشاب في مقصده من الزواج على إشباع الغريزة فقط، دون أن يضع في حسبانه الأهداف السامية للزواج في تحقيق السكن والرحمة، وإنجاب الذرية وتربيتها على منهج الإسلام؛ فالمسلم يسارع إلى الزواج اقتداء بسنة المصطفى ﷺ الذي كان يحذر

(١) رواه البيهقي، صحيح الجامع (رقم: ٤٤٣).
(٢) رواه الطبراني، الترغيب والترهيب (٣ / ٤٢).
(٣) رواه البخاري (رقم: ٤٧٨٢)

أصحابه من الرهبانية، ويقول: « **أما واللّٰه إني لأخشاكم للّٰه وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني** »[١].

ولا شك أن حسن الاختيار شرط أساسي لاستقرار الحياة الزوجية، وتحقيق السكن والرحمة والألفة بين الزوجين، أمَّا الذي لا يبالي من أي مسلك يأخذ، ويجعل أساس اختياره المال أو الجمال، أو نحو ذلك من المقاييس المادية التي هي عُرضة للزوال والتقلُّب، فهو كمن يشيد بناءً فوق الرمال، فكيف يُرجى له استقرار؟

ومهما وقع بين الزوجين من خلافات؛ فإنها سرعان ما تزول في ظل المحبة القوية والسكن النفسي بينهما الذي لا تهزُّه الأعاصير.

ولننظر إلى هذا التوجيه النبوي البديع في الحث على تنازل كلٍّ من الزوجين عن عناده، لكي تستمر المحبة بينهما، ويعمَّ الرضى والسعادة في حياتهما.

فقد روى الطبراني عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **ألا أخبركم بنسائكم في الجنة؟** » قلنا: بلى يا رسول اللّٰه، قال: « **ودودٌ ولود، إذا غضبتْ أو أُسيء إليها أو غضب زوجها قالت: هذه يدي في يدك، لا أكتحل بغمض حتى ترضى** »[٢].

أي: لا أذوق طعم النوم حتى ترضى، ويعود السرور والوِداد للأسرة، فما أعظمها من سعادة يفتقدها الكثيرون اليوم لبعدهم عن منهج الإسلام، وما أحوج الناس اليوم لهذه السعادة بجوار المرأة الصالحة.

روى ابن ماجه عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان يقول: « **ما استفاد المؤمن بعد تقوى اللّٰه ﷻ خيرًا له من زوجة صالحة، إنْ أمرها**

---

(١) رواه البخاري (رقم: ٤٧٧٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٣/ ١٦٣)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢٨٧).

أطاعته، وإن نظر إليها سرَّته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله »[١].

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والجار الصالح، والمركب الهنيء »[٢]، وفي رواية: « فمن السعادة: المرأة تراها تعجبك، وتغيب فتأمنها على نفسك ومالك.. ومن الشقاوة: المرأة تراها فتسوؤك، وتحمل لسانها عليك، وإن غبتَ عنها لم تأمنها على نفسها ومالك »[٣].

فليحرص الشباب على اختيار الزوجة الصالحة ذات الدين والخُلق القويم، المواتية لزوجها، المعينة له في المنشَط والمكره، فإذا ظفر بها فهي من أعظم كنوز الدنيا، ولا ينبغي التفريط بها؛ لأنها من أُسرة فقيرة أو ليست ذات حَسَبٍ وجمال، فكم من امرأة ذات مالٍ وجمال صيَّرت حياة زوجها جحيمًا لا يُطاق بسوء أخلاقها وتكبرها واستهتارها وفسادها.

فهل يدرك الشباب هذه الحقيقة أم يتغافلون عنها !!

***

---

(١) رواه ابن ماجه(رقم: ١٨٥٧) ، وأبو داود (رقم: ١٦٦٤) .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه(رقم: ١٢٣٢) ، وأحمد في المسند(١/ ١٦٨) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة(رقم: ٢٨٢) .

(٣) رواه الحاكم(٢ / ١٦٢) ، سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم: ١٠٤٧) .

قالوا في المرأة الصالحة

- في الحديث النبوي الذي رواه مسلم أن رسول اللَّه ﷺ قال: « الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »[(١)].
- ومن حِكم سليمان بن داود عليهما السلام قوله: « المرأة العاقلة تبني بيتها، والمرأة السفيهة تهدمه ».
- وقال الحريري في إحدى مقاماته: (القرينة الصالحة تربُّ بيتك، وتلبي صوتك، وتغض طرفك، وتُطيب عَرْفك، وهي قرة عينك، وريحانة أنفك، وفرحة قلبك، وخلد ذكرك).
- وقال حكيم: (سعادة الأسرة تتوقف على المرأة أكثر من توقفها على الرجل).

***

---

(١) رواه مسلم (رقم: ١٤٦٧).

منزلة الزوجة الصالحة

● عن ثوبان ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « ليتَّخذْ أحدكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة صالحة تعينهُ على أمر الآخرة »[١].

● قال مَسْلمة بن عبد اللَّه: (المرأة الصالحة خيرٌ للمرء من عينيه ويديه).

● قال منصور الفقيه:

أفضلُ ما نال الفتى ... بعد الهدى والعافيه
قرينةٌ مسلمةٌ ... عفيفةٌ مواتيهْ[٢]

الأم الصالحة

● قال الشاعر أحمد شوقي في بيان منزلة الأم الصالحة التي تربي الأجيال:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددتَ شعبًا طيبَ الأعراق
الأم روضٌ إنْ تُعُهِّد ريُّهُ ... يحيا ويورق أيما إيراقِ
الأم أستاذ الأساتذة الأُلى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق

(١) رواه الترمذي (رقم : ٣٠٩٣)، وقال: حديث حسن، ورواه الإمام أحمد (٥ / ٢٧٨)، وابن ماجه (١ / ٥٧١)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (رقم: ٢١٧٦).
(٢) بهجة المجالس (٢/ ٣١).

ما خاب من استخار

الدعاء سلاح المؤمن؛ فهو مورد الظمآن، وملجأ الخائف والحيران، وإذا ألمت بالعبد ضائقةٌ أو كربةٌ تضرع إلى مولاه فإذا بالصدر ينشرح، والقلب يطمئن، والنفس تهدأ وتسكن.

وقد أمرنا ربنا سبحانه بالدعاء، ووعدنا بالإجابة من فضله؛ فقال ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وتمر بالإنسان عوارض وأمور في هذه الحياة يقف عندها حائرًا، لا يدري خيرها من شرِّها، ويتساءل هل يُقدم عليها ويفعلها أم يتوقف خشية أن يكون فيها الضرر والسوء ؟!

وقد كان أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرًا أو زواجًا أو تجارةً أو نحو ذَلِكَ استقسم بالأزلام عند الأصنام؛ فإن خرج سهمه بالنهي عن الفعل امتنع، وإن خرج السهم بالأمر بالفعل بادر إليه، وهذا يدل على سخف العقل؛ لأنه يجعل سير حياةِ الإنسان مرتبطًا بالمصادفة، ويربط مصيره وأهم أموره بالاعتقاد الباطل المنكر بتلك الأوهام والخرافات، يخبط بِهَا خبط عشواء.

والإسلام دين التوحيد الخالص، والتوجه للخالق سبحانه في جميع شؤون الحياة؛ وهو دين البصيرةِ والعقل والهدايةِ إلى أقوم طريق، أخرج اللَّه به الناس من الظلمات إلى النور، فإذا اشتبه على العبد أمرٌ من الأمور التجأ إلى المولى سبحانه، مُفرِّج الكروب وملهم الصواب، يسأله أن يهيئ له السبيل لِمَا فيه الخير، ويصرف عنه ما فيه الشر في دينه ودنياه.

من هنا ندرك أهمية دعاء الاستخارة الَّذِي كان الرسول ﷺ يعلمه لأصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن.

عن جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنهما قال: كان رسول اللَّه ﷺ يُعلِّمنا الاستخارةَ في الأمور كُلِّهَا كالسورة من القرآن، يقول: « إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثُمَّ ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنتَ تعلم أَنَّ هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال: عاجل أمري وآجله) فاقدره لي، ويسِّرهُ لي، وإن كنتَ تعلم أَنَّ هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال: عاجل أمري وآجله) فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدرْ لي الخير حيث كان، ثُمَّ رضِّني به، ويسمي حاجته »[١].

يقول الإمام ابن القيم رحمه اللَّه:

(عوَّض رسول اللَّه ﷺ أمَّتَهُ بهذا الدعاء عما كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام.. عوضهم بهذا الدعاء الَّذي هو توحيد وافتقار، وعبودية وتوكل، وسؤال لمن بيده الخير كله، الَّذِي لا يأتي بالحسناتِ إِلَّا هو، ولا يصرف السيئات إِلَّا هو، الَّذِي إذا فتح لعبد رحمة لم يستطع أحد حبسَها عنه، وإذا أمسكها لم يستطع أحدٌ إرسالها إليه من التطير والتنجيم واختيار الطالع ونحوه؛ فهذا الدعاء هو الطالع الميمون السعيد، طالع أهل السعادة والتوفيق، الذِين سبقت لهم من اللَّه الحسنى)[٢].

---

(١) رواه البخاري (رقم: ١١٠٩، ٦٩٥٥).

(٢) زاد المعاد (٢/ ٤٠٤).

ودعاء الاستخارة يشمل أمرين مهمين، هما عنوان السعادة لمن أخذ بهما، وعنوان الشقاء لمن أعرض عنهما: التوكل والرضا.

فأنت عندما تلجأ إلى مولاك سبحانه تدعوه، وتطلب منه ﷻ أن يختار لك ما فيه الخير، في دينك ودنياك ومعاشك، وعاجل أمرك وآجله، فهذا هو التوكل والتفويض للَّه سبحانه، تلجأ إليه ﷻ ليكفيك كل شر، ويلهمك الخير والصواب، وقد بشَّر اللَّه عباده المتوكلين؛ فقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي: يكفيه ما أهمَّه في جميع أموره. فسواءٌ كانت نتيجة الأمر توافق ما ترجوه وتأمله، وتهواه نفسك أو تخالفها فأنت راضٍ، فرحٌ مستبشر بأن اللَّه قد صرف عنك من الشر والسوء، الَّذي قد لا تشعر به الآن ولا تدرك عواقبه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « **من سعادة ابن آدم استخارة اللَّه ورضاه بما قضى له، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة اللَّه، وسخطه بما قضى اللَّه** »[١].

وقد أورد الإمام ابن القيم - رحمه اللَّه - عن ابن مسعود ﷺ قال: (إن العبد ليهمُّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى يتيسر له، ينظر اللَّه إليه من فوق سبع سموات؛ فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إن يسَّرته له أدخلته النار، قال: فيصرفه اللَّه عنه، فيقول: من أين دُهيت؟ وما هو إلا فضل اللَّه سبحانه)[٢].

فالاستخارة سلاح المؤمن في كل معضلاته وأعماله وشؤون حياته، وما خاب من استخار، فالزم هذه التوجيهات النبوية البديعة تظفر بالسعادة والنجاح في الحياة.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ١٦٨)، والترمذي (رقم: ٢١٥٢)، وحسَّنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٥٥).

(٢) طريق الهجرتين (ص ٨٠).

علاج الأمراض النفسية[١]

الأمراض النفسية - كما يعرفها علماء النفس - هي: مجموعة متعددة المظاهر من الاضطرابات، والانفعالات التي تحدث في كيان الشخصية وتخلُّ بوظائفها، ولا تتسبب عن سبب عضوي معين في الجسم، وتقترن غالبًا بأسباب وعوامل نفسية المنشأ.

ويُعنى علماء النفس الحديث كثيرًا بعلاج أمراض النفس، حتى أضحى الطب النفسي تخصصًا له أهميته، وأقيمت العيادات المتخصصة بالعلاج النفسي، ومع ذلك يتزايد عدد الذين يعانون من الأمراض النفسية زيادة خطيرة تدعو إلى الاستغراب.

ولقد أصبحت السمة التي يتّصف بها هذا العصر أنه عصر القلق والاضطراب، بالرغم من تحقق الرفاهية، ووفرة الإمكانات المادية، وعمق الثقافة، فمن أين تأتي هذه الزيادة المروعة يومًا بعد يوم في نسبة المصابين بالأمراض النفسية، والذين يحطمهم القلق والخوف والاكتئاب، حتى أضحى عدد الذين يدخلون المصحات النفسية كل عام يساوي عدد الذين يتخرجون من الجامعات في البلاد الغربية ؟!

لقد استخدم علماء النفس طرقًا عديدة في علاج أمراض النفس، واستندوا إلى أحدث ما توّصلوا إليه من نظريات في علم النفس وطرق العلاج النفسي، فلم يجنوا إلا فقدان معظم الناس للصحة النفسية، وتعرضهم لمزيد من العقد النفسية، والانهيار العصبي.

---

(١) ينظر تفصيل هذا الموضوع في كتاب: (منهج الإسلام في تزكية النفس) للمؤلف(ص ٥٧).

يقول الدكتور علي كمال أحد المختصين في علم النفس المادي:

(يرى بعض الأخصائيين أن جميع الناس مرضى بالأمراض النفسية، وأن الأمر لا يتعدى فرق الدرجة بين الفرد والآخر، ومثل هذا الرأي له ما يسنده، وفيه غير القليل من الصحة).

ثم يحاول تبرير ذلك بأسباب وهمية؛ مثل زيادة عدد السكان، وبعض العوامل الاجتماعية والاقتصادية، وعامل الهجرة والتغرب، ويتجاهل السبب الحقيقي الذي فطن إليه كثير من المنصفين من علماء النفس، ونادوا بالعودة إليه ألا وهو الدين.

يقول (ديل كارينجي): (إن أطباء النفس يدركون أنَّ الإيمان القوي والاستمساك بالدين والصلاة، كفيلة بأن تقهر القلق والمخاوف والتوتر العصبي).

- ويقول الدكتور (بريل): (إن المرء المتدين حقًّا لا يعاني مرضًا نفسيًّا قط).
- ويقول الدكتور (كارل يونج): (استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة، وعالجت مئات المرضى، فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك لا ترجع في أساسها إلى افتقادهم الإيمان، وخروجهم عن تعاليم الدين... ويصح القول بأن كل واحد من هؤلاء المرضى وقع فريسة المرض؛لأنه حُرم سكينة النفس التي يجلبها الدين، ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى إلا حين استعاد إيمانه، واستعان بأوامر الدين ونواهيه على مواجهة الحياة).

ومن المؤسف حقًّا أن نجد كثيرًا من علماء النفس والمشتغلين بالعلاج النفسي ما زال يصر على تجاهل تلك الحقيقة، ويدّعي أن العلم يحقق سعادة الإنسان بمعزل عن الدين، وأن الدين يعارض العلم، ويدعو إلى الكبت، والحرمان من الحرية الشخصية.

ومع ذلك فقد اعترف عدد كبير من المتخصصين في علم النفس بفشل العلاج النفسي المعاصر في تحقيق أهدافه ما دام بعيدًا عن الدين.

يقول الدكتور علي كمال: (إن علاج هذه الأمراض، بالرغم من وسائله المختلفة وخاصة الحديثة منها، ما زال علاجًا افتراضيًّا أو تجريبيًّا، أو علاج مصادفة).

ويقول الدكتور حامد زهران: (إن علماء النفس يجب أن يستفيدوا من الدين، وأن يلتزموا بقوانين الخالق سبحانه؛ لأنهم ليسوا أعلم بالإنسان من اللَّه الذي خلقه)، ثم يقول: (إن من أخطر أسباب الأمراض النفسية الضلال والبعد عن الدين والإيمان، أو الإلحاد وتشوش المفاهيم الدينية وضعف القيم وعدم ممارسة العبادات).

وصدق المولى سبحانه القائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

***

التكبر آفة مُهلكة

الكِبر صفة من صفات النفس المذمومة، ومعناه أن يرى الإنسان نفسه فوق الآخرين؛ فيحصل في قلبه اعتزاز وزهو وتعالٍ على الناس، وازدراء لهم، وترفُّعٌ عن مجالستهم، وأسباب هذا التكبر كثيرة؛ منها:

١ - **التكبر بالعلم**، فيرى نفسه أنه أكثر علمًا، وأن الآخرين جهلة لا قيمة لهم.

٢ - **التكبر بالعمل والعبادة**، فيظن أن مقامه أعظم عند ربه، وأن الناس هالكون وهو الناجي.

٣ - **التكبر بالحسب والنسب**، واحتقار من ليس له ذلك النسب.

٤ - **التفاخر بالجمال**، وأكثر ما يجري ذلك بين النساء.

٥ - **التكبر بالمال**، فيتعالى على الفقراء والمساكين ويحتقرهم.

٦ - **التكبر بالقوة وشدة البطش.**

٧ - **التكبر بالأتباع والأنصار والأقارب.**

وقد ورد التحذير من التكبر في مواضع كثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

ومعنى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ ﴾ أي: لا تُعرض بوجهك عن الناس إذا كلَّمتهم أو كلَّموك، احتقارًا منك لهم واستكبارًا عليهم، ولكن أَلِن جانبك وابسط وجهك إليهم.

ومن الأحاديث ما رواه مسلم عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر** ».

فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، قال: « **إن اللَّه جميل يحب الجمال، الكِبر بَطَر الحق وغَمْطُ الناس** » [1].

وفي هذا الحديث تخويف للنفس من الاستجابة لدواعي الكبر، وبيان دقيق لحقيقة الكبر المذموم، وأنه ليس في الشكل واللباس، وإنما ترفعًا هو فيما يستقر في القلب من احتقار للآخرين، وإعراض عن قبول الحق؛ فقوله ﷺ: « **الكبر بطر الحق** » ؛ أي: دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا، وأمَّا « **غمط الناس** » فهو احتقارهم.

وينشأ من هذا التكبر والاحتقار للناس تتبُّعُ عوراتهم، والبحث عن أخطائهم وهفواتهم، مع ستر محاسنهم مهما كانت كثيرة.

وقد أشار الإمام ابن القيم - رحمه اللَّه - إلى هذه الآفة؛ فقال: (وهذا كثير بين الناس، يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه، فإذا رأى سَقْطة أو كلمة عوراء وجد بغيته فجعلها فاكهته ونُقْله) [2].

● والإعجاب بالنفس آفة أشد خطرًا من سابقتها، وأكثر تأثيرًا في تدسية النفس وانحرافها؛ لأن المصاب بهذه الآفة يغتر بنفسه، ويستبد برأيه، وينسى نعمة اللَّه عليه، ويعمى عن عيوبه وأخطائه، ولا يستمع لنصح ناصح ولا لوعظ واعظ؛ لأنه يدَّعي لنفسه الكمال.

---

(١) رواه مسلم (رقم: ٩١) .

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٠٣) .

وقد وجَّه اللَّه ﷻ عباده إلى معرفة قدر النفس والتزام حدودها، وعدم الاغترار بأعمالها.

فقال سبحانه: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢] .

فالنفس إذا تغلغل فيها حب الدنيا والتعلق بشهواتها أدى ذلك إلى تشوُّقها للمدح والثناء، وإزداد إعجاب صاحبها بها، ورضاه عنها، وهذا غرور قاتل وآفة مهلكة؛ وهو عنوان الخيبة والفشل.

فلتحذر من التكبر والتعالي على إخوانك لتحظى برضوان اللَّـه سبحانه وجنته؛ فقد قال ﷻ: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] .

وفي الحديث أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إن اللَّه أوحى إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحد على أحد» (١).

***

(١) رواه مسلم(رقم: ٢٨٦٥) .

حماقة المتكبرين

إذا المرء لم يَدرِ ما أمكنهْ ... ولم يأتِ من أمره أزينهْ
وأعجبته العُجب فاقتادهُ ... وتاه به التيهُ فاستحسنهْ
فدَعْهُ، فقد ساء تدبيرهُ ... سيضحك يوماً ويبكي سنهْ

لو فكَّر الناس فيما في بطونهم ... ما استشعر الكِبر شبَّان ولا شيبُ
يا ابن التراب ومأكول التراب غدًا ... أبصر، فإنك مأكولٌ ومشروبُ

***

حبل الكذب قصير

الصدق سعادة، ونجاح وراحة بال؛ ولهذا قال بعض الحكماء: (الصدق عزٌّ والكذب خضوع)[١].

وقد تحدث الإمام ابن القيم - رحمه اللَّه - في كتاب (الفوائد)[٢] عن آفة الكذب، فكان مما قال: (إياك والكذب.. فإن الكاذب يصوِّر المعدوم موجودًا، والموجود معدومًا، والحقَّ باطلًا والباطل حقًا، والخير شرًّا والشر خيرًا.. ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة مؤثرة للباطل..

ولهذا كان الكذب أساس الفجور، كما قال النبي ﷺ: « **إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند اللَّه كذابًا** »[٣].

وأول ما يسري الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها، كما أفسد على اللسان أقواله .. فيستحكم عليه الفساد، ويترامى داؤه إلى الهلكة، إن لم يتداركه اللَّه بدواء الصدق..

فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب.

( ) المجالسة (٣ / ٢٤١).

(٢) الفوائد (ص ١٩٩).

(٣) رواه البخاري (رقم: ٥٧٤٣)، ومسلم (رقم: ٢٦٠٧).

والله تعالى يعاقب الكذَّاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته...).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال ﷻ: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٩].

وإذا اتصف الإنسان بالكذب نسب الناس إليه شوارد الكذب المجهولة، وأضيفت إلى أكاذيبه وزيادات مفتعلة، حتى يصير الكاذب مكذوبًا عليه.

ولهذا قال الشاعر:

حسبُ الكذوب من البليَّة ... بعض ما يُحكى عليه
فإذا سمعتَ بكذبةٍ ... من غيره نُسبت إليه[1]

وهذه إحدى العقوبات الدنيوية التي تصيب الكذاب، حيث يُعرف بين الناس بهذه الصفة الذميمة، وكأنه مصدر لكل ما يقال ويشاع من أكاذيب.

وعقوبة أخرى أشد فتكًا وإهلاكًا، وهي عدم ثقة الناس بأقواله وأخباره مهما كانت صادقة، وبهذا يصبح منبوذًا بين الناس يُنظر إليه بريبة وشك.

---

(١) المحاسن والأضداد للجاحظ (ص ٥٣).

وقد قال الشاعر:

كذبتَ، ومَن يكذب فإن جزاءه إذا ما أتى بالصدق أن لا يصدَّقا

إذا عُرف الكذاب بالكذْب لم يكد يُصدَّق في شيء وإن كان صادقا

فما الذي يبقى للإنسان بعد أن خسر الناسَ من حوله، وخسر قبل ذلك رضاء ربه سبحانه؟

فالزم الصدق، وجاهد نفسك للتمسك به في جميع أقوالك وأفعالك، ولو ظننتَ أن فيه الهلاك، فإن فيه النجاة بإذن اللَّه تعالى.

عوِّد لسانك قول الصدق تحظَ به إنّ اللسان لما عوَّدت معتادُ

واحذر من صحبة الكذوب؛ لأن داءه يُعدي فيفسد عليك سمعتك بين الناس، ولو كان ظاهرهُ حسنًا، فإن قلبه مريض وفاسد.

لا تركننَّ إلى ذي منظرٍ حَسَنٍ فلرُبَّ رائعةٍ قد ساء مخبرها

ما كلُّ أصفر دينار لصفرته صُفر العقارب أرداها وأنكرها

ولتحذر أيضًا من تفلّت اللسان وكثرة الكلام؛ لأن المكثر من الكلام لا يخلو من الزلل والشطط، فقد تفلت منه كلمة كاذبة أو خبر لا يصح، فيكون سببًا في اتصافه بالكذب؛ فاللسان صغير الحجم لكنه كبير الجُرم.

وما أعظم الوصية النبوية بقوله ﷺ: «من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[1].

---

(١) رواه البخاري (رقم: ٦٠١٨)، ومسلم (رقم: ٤٧).

وقد قال الشاعر أبو العتاهية:

والصمتُ أجمل بالفتى ... من منطقٍ في غير حينه
لا خير في حشوِ الكلام ... إذا اهتديت إلى عيونه[١]

وقال آخر:

القول كاللبن المحلوب، ليس له ... ردٌّ، وكيف يردُّ الحالبُ اللبنا؟
في ضرعِهِ، وكذاك القول ليس له ... في الجوف ردٌّ، قبيحًا كان أو حسَنا

تدريب اللسان على الصدق

قال الإمام ابن حبان البستي رحمه اللَّه تعالى: (الواجب على العاقل أن يروِّض نفسه على ترك ما أبيح له من النطق، لئلا يقع في المزجورات، فيكون حتفه فيما يخرج منه؛ فإذا لم يوفَّق لاستعمال اللسان فيما يُجدي عليه نفعه في الآخرة، كان وجوب الإمساك عن السوء أولى به) .

[روضة العقلاء: ٥٠].

احذر كثرة الكلام

قال الإمام ابن حبان البستي رحمه اللَّه:(مَن كَثُر كلامه كَثُر سَقَطه، والسقط ربما تعدّى غيره فيهلكه في ورطة لا حيلة له في التخلُّص منها؛ لأن اللسان لا يندمل جرحه، ولا يلتئم ما قُطع به، وكَلْم القول إذا وصل إلى القلب لم يُنزع إلا بعد مدة طويلة، ومن الناس مَن لا يُكرَم إلا للسانه، ولا يُهان إلَّا به) .

[روضة العقلاء: ٤٦] .

---

(١) لباب الآداب، لابن منقذ(ص ٢٧٧) .

سبيل السعادة

للشاعر / أحمد محمد الصدِّيق

إنّ السبيل إلى السعادة بيِّنٌ   قد أوضحَتهُ شريعةٌ غراءُ
اللَّه أنزلها وليست فكرة   موقوتة أوحت بها الآراءُ
كلا.. وليست في الخيال مدينة   وهمية أدلى بها الحكماءُ
هي للحياة نظامها.. هي للنفوس   س سلامها.. هي رفعة وسناءُ
سعد الأنام بها فحيث ترعرعت   نبت الإخاء، وفاضت الآلاءُ

***

ولقد عجبتُ لمَن يزيغ عن الهدى   والحق بين يديه والآلاءُ
ولمن يغاويه السرابُ وعنده   نبع الحياة، وفيضها المعطاءُ
فمتى نسدِّد سيرنا وطريقنا   نحو الرشاد وتهتدي الأهواءُ؟

أهفو إلى البشرى تطل كأنها فجر بآفاق الدُنى وضَّاءُ
فليعْلُ دستور السماء فإنما هو منتهى ما يبتغي العقلاءُ
هو مرتقى الأمجاد منهاجُ العُلا والسالكون به هم السعداءُ

***

إن السعادة في اليقين

للشاعر / الأستاذ سليم عبد القادر

يا نفسُ ما لك تبحثين؟ يا نفس ما لك تسألين؟
أين السعادة والهنا؟ إنَّ السعادة في اليقينْ

* * *

يومٌ بنا حُلوٌ يمرُّ ويمر يومٌ بعدُ مُرُّ
دنيا، فليست تستقر ولتسألي مَن تعرفين
فإذا رضيتِ بأمرها وبحلوها وبمُرِّها
وبيسرها وبعسرها فلربما تستروحينْ

* * *

واغدي كما الطير اغتدى ما الفجر للدنيا بدا

فالأرض واسعة المدى والعزم طبع المؤمنين
ومِن السعادة والهنا أن تبذلي ما أمكنا
أن تُسعفي أهل الضنى أنْ تمسحي دمع الحزين

***

كم مرَّ مِن قلبٍ هنُا ظنَّ السعادة في الغنى
وصحا ليلقى ما بنى وهمًا، ولكن بعد حين
حكمُ القضا فينا مضى فارضَيْ بما حكَمَ القضا
إنَّ السعادة في الرِّضا بقضاء رب العالمين

***

رقم الإيداع
٩٩١٨/ ٢٠١٠
الترقيم الدولي I. S. B. N
978 - 977 - 342 - 896 - 9

الفِهرِسُ

هذا الكتاب

وصايا نافعة وتوجيهات ساطعة، وإرشادات هادية تنير لك طريق السعادة والنجاح في الحياة، جاءت تلك الوصايا والإرشادات في أسلوب مشوِّق، وعرض متميز، لتقدم دليلًا ميسرًا للسعادة بين يدي شباب الأمة؛ فما أحوج المسلمين اليوم إلى العودة الصادقة لهذا الدين القويم! وما أحوج البشرية جمعاء إلى النجاة من قيود الشهوات والأطماع والفتن! وما أحو
بأمواجه المتلاطمة ونزواته الفتاكة إلى العودة ا

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[آل عمران: ١٠١].

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

